الثغر الأعلى الأندلسي

في عصر المرابطين



الثغر الأعلى الأندلسي

في عصر المرابطين

وسقوط سرقسطة في يد النصارى سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨م
مع أربع وثائق جديدة

تأليف

الدكتور حسين مؤنس



١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م

مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسى : ٥٢٦ شارع بورسعيد الظاهر
تليفون ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠

"الثغر الأعلى" الأندلسى

فى عصر المرابطين

وسقوط سرقسطة فى يد النصارى سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م

مع أربع وثائق جديدة

للدكتور حسين مؤنس

مصدر الوثائق

عثرت على الوثائق التى أنشرها فى ذيل هذا البحث فى مخطوطين عربيين دلنى عليهما زميلى وصديق عبد العزيز الأهوانى فى مكتبة « دير سان لورنزو » بالأسكوريال ، يحمل أولهما رقم ٤٨٨ والثانى رقم ٤٨٩ مخطوطات عربية . وراجعت ما كتب عنهما فى فهرس المخطوطات العربية الذى وضعه الراهب الأوغسطينى اللبنانى « ميخائيل الغزيرى » بين سنتى ١٧٦٠ ، ١٧٧٠ باسم :

Casiri: *Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis*, Madrid, 1760-1770, 2 vols.

والفهرس الحديث الذى وضعه « ديرنبورج » فلم أجد فيهما إلا أن هذين المخطوطين يضمان نماذج من النثر الفنى الأندلسى فى عهدى المرابطين والموحدين [1] .

وعندما أخذت فى دراسة هذه « النماذج » ، تبينت أنها تضم عدداً طيباً من « صور » وثائق هامة تتصل بتاريخ « المرابطين » و « الموحدين » فى الأندلس ، وتبينت بعد قليل أن المادة التاريخية فى الكثير منها جيدة جديرة بالتحقيق والنشر والدراسة ، إذ أنها تضيف الى معلوماتنا طائفة طيبة

---

(١) راجع فهرس الغزيرى المشار إليه تحت رقمى DXVI (ص ١٥١) ورقم DXXXV بعد ذلك بقليل وفهرس ديرنبورج تحت الرقمين المذكورين أعلاه .

من الحقائق الجديدة القيمة عن أعمال هاتين الأسرتين المغربيتين المجيدتين اللتين لانجد بين أيدينا من المعلومات المفصلة ما يعيننا على معرفة تاريخهما في الأندلس معرفة صحيحة .

وليس إلى الشك سبيل في أن هذه «الصور» إنما نقلت عن الوثائق الأصلية نقلا صحيحاً أمينا ، لأننا نجد فى صفحة ١٢٠ من المخطوط الأول شهادة بصحة هذه الصور صادرة عن عالمين أندلسيين موثوق فيهما هما محمد بن يحيي ابن سيد الناس وعمر بن محمد الأزدى المعروف بابن الشلوبين أو الشلوبيني . ونص العبارة هو :

« قرأت أبعاض جميع ماتقيد فوق هذا ، ومنها ما أكملته ، وسمعت أبعاض ذلك ، ومنها ما كمل سماعه على الشيخ الفقيه الأستاذ أبى على عمر بن محمد ابن عمر بن عبد الله الأزدى الشهير بابن الشلوبين ، رضى الله عنه ، وأجاز لى ما فاتنى منها فى روايته ، وناولنى السفر بكليته ، وأباح لى مافى روايته منه ، والإسناد اليه فيه ، والله ينفعه بذلك » .

« قاله وكتبه عبيد الله الفقير إليه محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيي ابن أبى القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن سيد الناس اليعمرى ، وفقه الله حامداً ربه ومستغفراً ذنبه ومصلياً على نبيه الكريم وعلى آله » .

« وذلك كله فى عقب شهر ذى قعدة سنة ثلاث وأربعين وستمائة » .

« المكتوب فوق هذا صحيح : قاله عمر بن محمد الأزدى فى التاريخ » .

ومما يدل على أن النسخة التى بين أيدينا هى التى راجعها « ابن الشلوبين » بنفسه أن اسمه وارد فى السطر الأخير منها على هيئة توقيع ، وذلك فى ذاته أمر عظيم القيمة [1] .

ثم إننا سنلاحظ أن معلوماتنا التاريخية تؤيد كل ما تشير إليه الوثائق تأييداً تاماً .

---

(١) ظاهر من هذه العبارة أن مخطوطتنا أصلية وأنها ترجع إلى سنة ٦٤٣ هـ . مما يزيد فى قيمتها . وهى مكتوبة بخط مغربى عسير القراءة فى مواضع كثيرة ، ولكنها فى حالة جيدة .

لهذا عمدت إلى ترتيب وثائق هذين المخطوطين ودراستها تمهيداً لنشرها ، ولما كانت تتناول مواضيع مختلفة تتفاوت أهمية فكل وثيقة منها تحتاج إلى دراسة خاصة مفصلة . وقد أخذت فى الصفحات التالية أربع وثائق تتعلق بموضوعين اثنين : (الأول) موقعة أفليش التى انتصر فيها المرابطون على جيوش الفونس السادس صاحب ليون وقشتالة فى شوال سنة ٥٠١ هـ/٣٠ مايو ١١٠٨م و (الثانى) وقوع سرقسطة فى أيدى ألفونس الأول ملك أرغون وقشتالة وليون فى ٥١٢ هـ /١١١٨ م . واستغاثة أهلها بالمرابطين .

ولما كانت الوثائق أدبية الطابع ، تغلب على أسلوبها المحسنات البديعية ، فإن استخراج الحقائق التاريخية منها كان أمراً عسيراً . وكان لابد من مقدمة تاريخية عن المرابطين فى الأندلس وتاريخ « الثغر الأعلى » الأندلسى فى عصرهم حتى تتضح الاشارات التاريخية الواردة فى الوثائق ، وحتى يكون من الممكن الاستفادة منها فائدة صحيحة .

هذا ولا يفوتنى كذلك التنبيه على القيمة الأدبية لهذه الوثائق من حيث هى نماذج للنثر الأندلسى فى صورة من أزهى صوره ، ولا غرابة فى ذلك ، فكتابها ، وهم ابن شرف وابن خلصة وابن أبى الخصال يعينون ذروة من ذرى البلاغة العربية ، ولم يصل إلى شأوهم فى هذا الباب إلا قلائل فى المشرق والمغرب .

* * *

المرابطون فى الأندلس

يعتبر القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) عصر اليقظة الأخيرة فى تاريخ الأندلس الاسلامى ، عصر الصحوة الذى سبق عصور الاضمحلال المتصل التى تبدأ من أول القرن السابع الهجرى ، وهى صحوة قصيرة عنيفة سبقتها إرهاصات أنبأت عن عود الاسلام الأندلسى إلى النصر والعزة بعد ذلك الانكماش المستمر الذى عاناه طوال القرن الخامس الهجرى عقب زوال الخلافة الأموية الأندلسية .

ومن هذه الارهاصات وأظهرها دلالة انتصار « الزلاّقة » الذى أحرزته القوات المرابطية الأندلسية فى سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، بعد عام واحد من سقوط طليطلة فى يد ألفونس السادس ملك قشتالة (٤٧٨ هـ/١٠٨٥م) ،

فكان ظفر الاسلام بهذا النصر الفريد بعد تلك الكارثة القاصمة إيذانا بتحول حاسم في مجرى تاريخ الغرب الاسلامي كله ، فقد وقف تيار الغزو النصراني ، وبدأت فترة استرداد إسلامية ، استعادت فيها جيوش المرابطين كثيراً مما فقده المسلمون خلال السنوات الأخيرة الماضية ، وارتفعت الجبهة الاسلامية من مجرى « الوادي الكبير » إلى مجرى « تاجه » في ناحية الغرب ، واقتربت جيوش الاسلام من طليطلة وأخذت تنوشها وتحاول استعادتها ، وبدا بوضوح أن جبهة الاسلام في «شرق الأندلس» لن تلبث أن تعود إلى ما كانت عليه قبل أن يستولى السيّد القمبيطور على بلنسية (٢٨ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ / ١٥ يونيه ١٠٩٤) [١] ويهدد نواحي سرقسطة ومُرسية وبلاد الشرق كلها .

وعندما توفي يوسف بن تاشفين في أول المحرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م) ترك لابنه عليّ بن يوسف دولة واسعة الأطراف يصفها ابن أبي زرع بقوله : « وملك جميع بلاد القبلة من سجلماسة إلى جبل الذهب في بلاد السودان ، وملَك جميع بلاد الأندلس شرقا وغربا ، وملَك الجزائر الشرقية وميورقة ومنورقة ويابسة ، وخُطب له على ألفي منبر ونيف وثلاثمائة منبر ، وملك من البلاد ما لم يملكه والده ، لأنه وجد البلاد هادئة والأموال وافرة ، والملكَ قد توطد والأمور قد استقامت » [٢].

وقد أساء « دوزي » الحكم على عليّ بن يوسف كما أساء الحكم على المرابطين عامة ، واعتمد في حكمه هذا على إشارات يشوبها الهوى أوردها عبد الواحد المراكشي في « المعجب » [٣] وما زال يلح في تشويه صورته حتى جعل حكمه من أظلم وأسوأ ما عرفه المغرب الاسلامي : لا علم ولا أدب ولا رفاهية

---

(١) تحدد الروايات الاسلامية تواريخ مختلفة لسقوط هذا البلد ؛ ولكن تحديد ابن الأبار الذي أخذنا به هنا هو أدقها : الحلة السيراء ، ص ١٨٩ ؛ وانظر مناقشة دوزي للتواريخ : Dozy, *Recherches*, II. pp. LXVIII sqq

(٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس (طبعة نورنبرج ١٨٤٣) ص ١٠٢

(٣) راجع رأي عبد الواحد المراكشي في « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » (طبعة القاهرة ١٩١٤) صفحات : ٧٧ ، ٩٥ ، ٩٦

ولا رخاء[1] . مع أن الواقع يخالف ذلك كله ، فقد كان الرجل أندلسى الروح متفتح النفس ، أحاط نفسه بطائفة من أعظم من عرف الأندلس من أهل الفكر والأدب ، ويكفى أن نذكر منهم أبا بكر المعروف بابن القصيرة وأبا القاسم بن الجد ، وابن القبطورنة ، وأبا محمد عبد المجيد بن عبدون[2] ، ومروان بن أبي الخصال الذى يكاد يكون أعظم ناثر عرفه الأندلس قبل لسان الدين بن الخطيب ، وأخيل بن أدريس الرندى[3] ، ويكفى أن نذكر كذلك أن الفيلسوفين الأندلسيين أبا الوليد بن رشد[4] ، وأبا العلا بن زهر[5] ، كانا من أصحاب على وجلسائه وقد أشرف الثانى منهما على تربية ابنه تميم وكان أشبه بالوصى عليه أثناء إقامته فى قرطبة نائباً عن أبيه فى حكم الأندلس[6] .

وكانت أحوال الأندلس على رأس هذه المائة السادسة على حال من السوء كادت تضيع معها آثار انتصار « الزلاقة » وثمرات ما بذله يوسف ابن تاشفين من الجهد فى استنقاذها من آثار الفوضى التى شاعت فيها بعد سقوط الخلافة الأموية . ولم يلبث هذا الأمير اللمتونى الكبير أن استبان أن تركه ملوك الطوائف فى إماراتهم حرى بأن يذهب بآثار كل جهد يبذله فى استنقاذ البلاد ، فعول على خلعهم عن إماراتهم وتركيز السلطان كله فى يده وأيدى رجال من المرابطين [7] . فجاز إلى الأندلس جوازه الثالث سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠م ، واستفتى الفقهاء فى أمر هؤلاء الأمراء ، فأفتوه بضرورة

---

(1) Dozy : *Musulmans d'Espagne* (2e éd.) p 155

(٢) المراكشى ، المعجب ، ص ٩٤

(٣) ابن الأبار ، الحلة السيراء (طبعة دوزى) ص ٢٢٢

(٤) انظر : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، لمؤلف مجهول (طبعة علوش ١٩٣٦) . ص ٧٥ — ٧٦

(٥) المراكشى ، المعجب ، ص ٧٥ ، والمقرى ، نفح الطيب (طبعة أوروبا) ج١ ص٢٨٧ وانظر المناقشات الطويلة التى يوردها صاحب الحلل الموشية حول هذا الموضوع ص ٣٠ وما بعدها .

(٦) لدينا وثيقة هامة فى المخطوط الذى أخذت منه الوثائق التى أنشرها هنا ، ص ١٧٤ من المخطوط رقم ٤٨٩

(٧) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٦٨٩

خلعهم [1] بل يذهب ابن خلكان وابن خلدون إلى أنه كتب إلى فقهاء المشرق — وفي مقدمتهم الغزالي — يستشيرهم في هذا الأمر، فأفتوه بضرورة تخليص الأندلس من أمرائها هؤلاء . ويفهم من بعض الروايات الأندلسية أن يوسف ابن تاشفين إنما أتى إلى الأندلس طامعاً فيها من أول الأمر [2] ، ولكن الغالب أن فكرة خلع هؤلاء الأمراء والاستيلاء على البلاد جملة إنما نبتت في ذهنه بعد موقعة الزلاقة وما رأى من فساد أمر الكثير منهم وسوء تصرفهم في أمور رعيتهم وتقصيرهم في معاونة جيوشه أثناء النضال مع النصارى ، بل إنه استيقن أن بعضهم كان يتآمر مع أمراء النصارى على المرابطين في هذه اللحظة الحاسمة [3] ، وعلى أي الأحوال فقد تصرف يوسف بن تاشفين في هذا الأمر بحكمة وحذر ، وبدأ بالأمير عبد الله آخر أمراء بني زيري أصحاب غرناطة ، فعزله وأخذ البلد منه وأرسله إلى إفريقية . ثم عاد يوسف إلى إفريقية تاركا قائده «سير بن أبي بكر» ليكمل عزل بقية الأمراء والاستيلاء على ما بيدهم من البلاد والحصون ، وقد أتم سير هذه المهمة خلال بضعة شهور ، فلم ينته عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م حتى كانت إمارات الطوائف كلها — عدا سرقسطة — قد زالت من الوجود [4] ، وعاد ما بقي من الأندلس الأسلامى موحداً من جديد بيد الامير المرابطى سير بن أبي بكر الذى اتخذ قرطبة مركز أعماله [5] ، وهكذا عاد هذا البلد إلى مركزه الممتاز بين البلاد بعد أن فقده طوال عصر ملوك الطوائف .

---

(١) ابن خلدون ، العبر (طبعة بولاق) ج ٦ ص ١٨٧

(٢) انظر : المراكشي ، المعجب ، ص ٧٤

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٧ ، Dozy, *Musulmans d'Espagne* : III, 139 وراجع التفاصيل التى يوردها ليفى بروفنسال عن علاقات المعتمد بن عباد مع الفونس السادس ملك ليون وقشتالة فى مقال :

La "Mora Zaida" fille d'Alfonse VI et leur fils l'Infant Don Sancho, ds : Hespéris XVIII, 1934, pp. 1-8.

(٤) المراكشي ، المعجب ، ص ٧٥ وما يليها . وابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٨٧

(٥) الحلل الموشية ، ص ٥٩

ولا يتسع المقام هنا لتفصيل أمر النظام الذى وضعه يوسف بن تاشفين لحكومة الأندلس ، والمعلومات التى لدينا عن ذلك قليلة جداً على كل حال ، وكل ما نستطيع قوله هو أن المرابطين تركوا الشئون المدنية بيد الأندلسيين كما كان الحال عليه ، واحتفظوا لأنفسهم بشئون الحرب والدفاع [1] ، وكان النائب عن يوسف بن تاشفين فى حكومة الأندلس قائد عسكرى هو سير بن أبى بكر ، ثم استبدل به بعد قليل ابنه أبا الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين [2] ، وكان التفاته كله موجهاً الى الحرب وحدها ، وكانت تعاونه هيئة كبيرة من القواد معظمهم من أهل بيته أو من كبار رجال القبائل اللمتونية ، وسيكون لبعضهم من أمثال أبى عبد الله بن الحاج وأبى زكريا بن واسينو وجرور الحشمى ، وأبى عبدالله مزدلى شأن عظيم فى الحروب مع النصارى فى الأندلس ، ولم تكن القوة العسكرية التى وضعها يوسف تحت تصرف نائبه بالكبيرة ، فقد قدرها صاحب « الحلل الموشية » بسبعة عشر ألف فارس « موزعة على أقطار معلومة ، يكون منها بأشبيلية سبعة آلاف وبقرطبة ألف فارس ، وفى المشرق أربعة آلاف فارس ، وباقى العدد على ثغور المسلمين للذب والمرابطة فى الحصون المصاقبة للعدو » [3] وليس من المعقول أن تكون هذه هى عدة الجيش المرابطى المقيم فى الأندلس ، لأننا نرى عشرات الألوف من جنودهم فى كل ناحية ، والمنطقى أن هذا هو عدد الفرسان فقط ، وأنه كان إلى جانب هؤلاء الفرسان أعداد عظيمة من الرجالة . وقد كسب المرابطون برجالتهم المنظمة القوية كل انتصاراتهم الكبرى فى الأندلس [4] . ولسنا نفهم السر فى أن يوسف اختص ناحية إشبيلية بسبعة آلاف مع أن الخطر عليها

---

(١) ليس لدينا عن هذا الموضوع غير بضعة سطور متفرقة يوردها صاحب الحلل الموشية ، انظر صفحات : ٦٣ ، ٦٧ — ٦٩

(٢) الحلل الموشية ، ص ٦٧

(٣) الحلل الموشية ، ص ٦٥ ، وفى النص أخطاء كثيرة أصلحتها هنا .

(٤) راجع تفاصيل موقعة الزلاقة مثلا فى : الروض المعطار فى خبر الأقطار لابن عبد المنعم الحميرى (طبعة ليفى بروفنسال ، القاهرة) مادة زلاقة ، وهو الأصل الذى أخذ عنه المقرى وعبدالواحد المراكشى . وانظر التفاصيل الواردة عن واقعة أقليش فى وثيقة رقم ١ المرفقة بهذا البحث .

لم يكن جسيما ، أما الخطر الحقيقي فكان على قرطبة وإقليمها ، أي ناحيـة الوسط ، ومع ذلك فحصتها من الحامية لم تزد على ألف فارس ، وكان الشرق في ذلك الحين أكثر النواحي استهدافا للهجوم من ناحية نصارى الشمال ، وكانت حامية المرابطين فيه رغم ذلك أربعة آلاف فارس فحسب ، ويبدو أن هذه كانت أعداد القوات الثابتة المقيمة ، ولا شك في أنه كانت ترسل اليها عنـــد اللزوم قوات أخرى تؤيدها ، وسنرى مصاديق ذلك فيما يلي من الحديث .

وقد لاحظنا أن نائب يوسف بن تاشفين استنزل أمراء الأندلس أجمعين عدا صاحب سرقسطة أبي جعفر أحمد بن هود الملقب بالمستعين بالله ، فما الذي حدا به إلى اختصاص هذا الأمير بالرعاية ، وهو لم يخرج عن أن يكون أميراً من أمراء الطوائف ، لا يفترق عن المعتمـد صاحب إشبيلية أو المتوكل صاحب بطليوس في كثير ؟ لكي نجيب على هذا السؤال ينبغي أن نلقي نظرة على الحالة العامة في هذا القطر الكبير من أقطار إسبانيا الاسلامية الذي كان يعرف « بالثغر الأعلى » .

الثغر الأعلى وسرقسطة في عصر المرابطين

عند ما انفرط عقد الخلافة الأموية على رأس المـائة الخامسة للهجرة ، كان يحكم هذه الناحية رجل من أنصار المنصور بن أبي عامر يسمى أبو الحكم المنذر بن يحيي ، وكان فارساً جلداً ذا خبرة ودراية بأمور هذا الثغر المتطرف من بلاد المسلمين[1] ، وكانت بينه وبين جيرانه ملوك أرغون من النصارى علاقات ودّ موصولة ، وكان هو يعتبر نفسه من أنصار ملك أرغون وأتباعه ، وكان في نفس الوقت سيداً متبوعا للكثيرين من أشراف النصارى الذين كانوا يملكون الأراضي والحصون بهذه النواحي الجبلية الوعرة[2] ، فلما مات في سنة ٤١٤ هـ/١٠٢٣ م خلفه ابنه يحيي بن المنذر ، ومضى يسوس الأمر على سنن أبيه ، وابتعد بنفسه

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، الجـزء الثالث (طبعة ليفي بروفنسال) ص ١٧٥ — ١٧٦ ؛ ابن الأبار ، أعمال الأعلام (طبعة ليفي بروفنسال سنة ١٩٣٤) ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ؛ وانظر الخريطة المرفقة لتعرف حدود الثغر الأعلى .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ١٧٦

وبناحيته عن الاضطراب العنيف الذى ساد الأندلس كلها فى تلك السنوات، فسلمت له بلاده ، وأقام فى دعة لايكاد ملوك أرغون يدبرون له شرا حتى مات سنة ٤١٧ هـ/ ١٠٢٦ م[١]، وخلفه ابنه المنذر فأقام فى الامارة ثلاث عشرة سنة انتهت سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٩م ، فبدأ سلطان المسلمين فى هذا الركن القصى يتزعزع، وبدأت أطماع أمراء أرغون وأكناد برشلونة تتجه نحو سرقسطة وأقليمها، وكان هذا الإقليم يضم حوض «إبرُه» الأعلى كله، وفيه من الحصون وكبار المدائن — عدا سرقسطة — «قلعة أيوب» و« دَرُوقة » و« وشقة » « وبرَبشتر » و « مدينة سالم » و « لوجرونيو » Logroño و « صورية » Soria و « ترويل » Teruel و« إفراغة » Fraga»[٢] وكان بهذا من أوسع إمارات الطوائف امتداداً ، وكان أهل هذا الاقليم الواسع — مسلمين ونصارى — يعيشون فى ظل هذه الأسرة فى رخاء وأمن .

وكان من بين أتباع «بنى يحيى» هؤلاء أسرة عربية ترجع فى أصلها البعيد إلى قبيلة جذام اليمنية ، هى أسرة « بنى هود » وكانت تملك مدينتى « لاردة » و« تُطيلة Tudela»، وكان يمثلها في ذلك الحين سليمان بن محمد بن هود، فلم يكد يلمح خلل الاضطراب تنوش سرقسطة حتى وثب من حصنه ودخلها بأتباعه وحاز الاقليم كله ، وتلقب « بالمستعين بالله » على نحو ما كان يفعل معاصروه من ملوك الطوائف (٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م)[٣] ، وأصبحت « دولة بنى هود » فى سرقسطة والثغر الأعلى كله من أوسع إمارات الطوائف رقعة وأقواها وأعزها جانبا ، واستطاعت أن تحول بين الامارات النصرانية فى هذا الركن الشمالى الشرقى وبين الانسياح إلى بلاد المسلمين كما حدث في « الموسطة » (إقليم طليطلة) و « الغرب » (إقليم بطليوس وماردة) .

---

(١) انظر التفاصيل التى يقدمها ابن حيان وابن خلدون عن سياسة المنذر وابنه يحيى مع جيرانهما من النصارى والمسلمين ، ذيل ١٣ ، ١٤ فى :
Dozy : *Recherches*, I. pp. XXXIV sqq.

(٢) الحلل الموشية ، ص ٦٠ وقد أكملت هذه القائمة من كتاب :
Prieto Vives, *Los Reyes de Taifas* (Madrid. 1926), p. 46.

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٢٢ ، ابن الأبار ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٧

بنو هود

ولم يكن الخطر النصرانى على الأندلس الاسلامى من هذه الناحية بعيداً ولا قليلا في ذلك الحين ، فقد كانت حدود إمارة سرقسطة تتصل مباشرة بحدود ممالك وإمارات إسبانيا النصرانية جميعاً، وقد أرادت المقادير أن يكون على رأس كل منها في تلك الحقبة من تاريخ الأندلس أمير قوى طامع فى زيادة بلاده على حساب الخلافة الأموية الذاهبة ، فكانت تصاقبها من الشمال أربع إمارات نصرانية هى : كونتية « قطلونية » يحكمها أمير واسع المطامع متصل النشاط هو رامون بير نجير الثانى (١٠٣٥ — ١٠٧٦ م) ومملكة أرغون وكان يحكمها راميرو الأول (١٠٣٥ — ١٠٦٣ م) وكان لايكف عن اجتياح حدود سرقسطة وانتهاب مايصل اليه من أرضها ، وبين هاتين المملكتين الكبيرتين نجد إمارتين صغيرتين هما باليارس (Pallars) وشرطانية (Cerdaña) وسيقف صاحباها إرمنجول الثالث (Ermengol III) ورامن (Ramon) الى جوار قطلونية وأرغون فيما يلى من الاحداث . أما فى الشرق فكانت حدود سرقسطة تتصل بحدود مملكة نبرّة (Navarra) وكان ملكها غرسية الثاني (García II) (١٠٣٥—١٠٥٤م) من أشد الطامعين في بلاد المسلمين ، ثم مملكة ليون (Leon) أكبر ممالك إسبانيا النصرانية وأشدها خطراً على المسلمين فى ذلك الحين ، وسيكون ملكها إذ ذاك فرناندو الأول (١٠٣٥ — ١٠٦٥ م) وأولاده من بعده حصة الأسد فى تراث الأندلس الاسلامي ، وكان من حسن حظ إمارة سرقسطة وبلاد شرق الأندلس كلها أن كل جهود ملوك ليون ستتجه نحو إمارتى بطليوس وطليطلة فترة طويلة من الزمان[1].

ومن ثم كان العبء الملقى على أكتاف بني هود ثقيلا لا يكاد ينهض به إلا الجهد المتصل ، ولم يكونوا ليستطيعوا أن يقفوا من جيرانهم النصارى موقف العدو المناجز ، بل كان لابد لهم من المصانعة والمداورة حتى يخلصوا بلادهم من الشر المحيق . بل سنراهم يقفون موقف الحياد عند ما يستولى ألفونس السادس ملك ليون على مملكة طليطلة (سنة ٤٧٥ هـ/١٠٨٥ م)

(1) BALLESTEROS: *Historia de España* (1922), II, pp. 295 sqq.

وسيقفون الى جانب « السيد القنبيطور » عند ما يهاجم بلنسية ويستولى عليها ويذيق أهلها العذاب بعد ذلك بقليل .

وعند ما توفى أبو أيوب سليمان المستعين فى سنة ٤٤١ هـ/١٠٥٠م استهدفت إمارة سرقسطة لخطر جسيم ، إذ تقاسم بلادها أبناؤه الأربعة ، وجعل كل منهم ناحيته إمارة مستقلة ، فانفرد أبو جعفر أحمد بسرقسطة وتلقب بعماد الدولة المقتدر بالله . واستقل أبو عمر يوسف بلاردة وتلقب بعماد الدولة المظفر ، وأخذ محمد قلعة أيوب وتلقب بعضد الدولة ، أما الرابع المنذر ، فقد اكتفى بلقب الحاجب وفاز بتُطيلة وتسميه المراجع لب[1] . وهى كلمة أندلسية معربة عن «لوبو» (lobo) الاسبانية ومعناها الذئب . ومضى الاخوة يحتربون فيما بينهم ، واستمروا على ذلك سنتين استطاع خلالها أحمد المقتدر بالله أن يستولى على ما كان بيد أخويه محمد والمنذر ، واستمر يساجل أخاه يوسف حتى غلبه على بلاده فى أواخر أيامه حوالى سنة ٤٧٤ هـ/١٠٨١ م . فعادت وحدة الامارة على يديه ، بل استطاع أن يضيف اليها أراضى جديدة انتزعها من جيرانه النصارى والمسلمين على السواء . فاستولى على طرطوشة (٤٥٣ هـ/١٠٦٢م) ودانية (سنة ٤٨٦ هـ/١٠٧٥م) . وحاز جزءاً من كورة طركونة (Tarragona) وأطرافا من بنبلونة (Pamplona) ونواحى من لقنت (Alicante) وبلنسية وكان أصحابها فى حالة بالغة من الضعف والعجز عن ضبط إمارتهم[3] .

وأحمد المقتدر بالله هذا هو أقوى أمراء بنى هود وأوسعهم فى تاريخ فترة الطوائف ذكراً بعد المعتمد بن عباد ، وليس الى الشك سبيل فى أنه كان أقدرهم على مغالبة شدائد هذه الفترة القاسية ، وأمهرهم فى النجاة ببلده وعرشه ، وأجرأهم على مناجزة جيرانه من ملوك النصارى وفرسانهم ، وكانت سرقسطة

---

(١) ابن حيان برواية ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٢٤ ، وابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٧

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٨

(٣) استخرج بريتو بيبس هذه التواريخ من النُّميات ، راجع بحثه القيم عن ملوك الطوائف : PRIETO VIVES: *Los Reyes de Taifas*, pp. 47 sqq.

فى أيامه درة الاندلس الاسلامى ، فقد ابتنى فيها « قصر الجعفرية » الباقى الى اليوم وقصر الذهب الذى قال فيه شعراء الطوائف شعراً كثيراً .

وتوفى أحمد المقتدر بين سنتى ٤٧٤و٤٧٥ ه / ١٠٨١و١٠٨٢ م فانقسمت إمارة سرقسطة من جديد، واقتسمها ابناه يوسف والمنذر، فأما يوسف فقد تلقب بالحاجب المؤتمن ؛ واستقل بمدينة سرقسطة وغربى الامارة كله ، وانفرد الثانى — المنذر — بطرطوشة ودانية والجزء الساحلى من الامارة ، وتلقب بالحاجب عماد الدولة [١] ، واستمرت الحرب بين الأخوين ؛ ولم يخمد أوارها حتى بعد وفاة يوسف المؤتمن سنة ٤٧٦ ه /١٠٨٣ م ، فقد نهض بأوزارها من بعده ابنه أحمد بن يوسف بن هود ، ومضى يحارب عمه المنذر ، وجعل كلاهما يستعين على خصمه بمن استطاع الاستعانة به من ملوك النصارى .

وفى عهد يوسف هذا أقبل السيد القنبيطور إلى سرقسطة لاجئاً الى أميرها بعد أن نفاه الفونس السادس ملك ليون من بلاطه ، وقد انضم السيد الى جيوش يوسف المؤتمن ومضى يحارب أعداءه، واستطاع أن ينزل بالكونت رامون بيرنجير الثانى صاحب قطلونية هزيمة قاسية عند «المنارة» (Almenara) وقد وقع الكونت فى أسر ابن هود فى هـذه الموقعة ، وكان لها أثر بعيد فى تاريخ « السيّد » وشرق الأندلس كله بعد ذلك . وقد أقام السيد فى سرقسطة حتى سنة ٤٧٧ ه /١٠٨٤ م ، وكانت هذه السنوات بعيدة الأثر فى نفسه وتكوينه [٢] ، ويبدو أن لقب « السيّد » الذى لزمه بعد ذلك طول حياته كان من آثار هذه الفترة ، لأنه كان يقود جنداً من المسلمين ، فكانوا ينادونه « بياسيدى » ، فلما عاد الى خدمة الفونس السادس لزمته هذه التسمية ، وصار جنده النصارى ينادونه بلفظى (mio Cid) .

وفى هذه السنوات كان ألفونس السادس صاحب قشتالة دائم الطمع فى سرقسطة وبلادها ، ولولا يقظة يوسف وأخيه وأهبتهما للدفاع عن بلادهما فى كل لحظة لضاعت الامارة قسمة بين قطلونية وأرغون

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

(٢) Lévi Provençal, *Le Cid de l'histoire* dans *L'Islam d'Occident* (Paris 1948), pp. 170 sqq.

وقشتالة ، ويكفى أن نذكر حادثا صغيراً يدلنا على مقدار ما كانت هذه الامارة الاسلامية تتعرض له من الاخطار : فقد كان أبو جعفر أحمد — الذى تحدثنا عنه — قد سجن يوسف المظفر أخاه بعد أن تغلب عليه ؛ وأودعه أحد حصون روطة (Rueda). وأقام الرجل سجينا فى ذلك الحصن بعد وفاة أخيه، فلما كانت أيام ابنى أخيه هذا — يوسف وأحمد — فر من سجنه فى أوائل سنة ٤٧٧ هـ ١٠٨٤ م ، وذهب يحتمى بألفونس السادس ملك قشتالة. ومات عنده بعد قليل ، فزعم ألفونس أن المظفر نزل له قبل موته عن نصيبه الذى تغلب عليه ، وأسرع بالفعل مع نفر من رجاله فيهم ابن عمه راميرو نحو روطة، وكاد البلد يقع فى أيديهم ، لولا أن يوسف المؤتمن وحليفه القنبيطور وضعا لألفونس ورجاله كمينا فى خانق ضيق على الطريق ، فلم يكادوا يتوسطونه حتى انهالت عليهم الحجارة فهلك منهم نفر ولم ينج ألفونس نفسه إلا بصعوبة [1] ، وأراد « السيد » أن يبرئ نفسه من تهمة الاشتراك فى هذه المؤامرة ؛ فرجع إلى ألفونس واعتذر إليه وصالحه وعاد إلى خدمته . وهذا الحادث يدلنا على مقدار يقظة ألفونس وتطلعه لما فى أيدى المسلمين ، ويدلنا على يقظة يوسف المؤتمن وشدة حذره ، ويدلنا كذلك على أن الصراع بين الجانبين لم يكن صراع حروب ومواقع فحسب ، بل كان كفاح مؤامرات وحيل، ولو قد غفت عين أحد أمراء سرقسطة لحظة لابتلعها ألفونس كما ابتلع طليطلة سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، دون كبير مشقة .

وتوفى يوسف المؤتمن فى ذلك العام ، وصار الأمر فى سرقسطة لابنه أحمد على ما قلناه ، فتلقب بالمستعين ، وضاعف الهمة فى الحفاظ على ما بيده ، ذلك أن أطماع ألفونس السادس صاحب ليون وقشتالة فيما جاوره من بلاد المسلمين زادت بعد استيلائه على طليطلة . فعول على الاستيلاء على سرقسطة وأقبل يحاصرها ، واستعد أحمد المستعين لهذا الحصار وتحالف مع حميه مروان بن عبد العزيز صاحب « بلنسية » ، واستمر الحصار حيناً ؛ وتحرج مركز البلد ومن فيه ،

---

(1) Prieto Vives. *Los Reyes de Taifas.* p. 48.
R. Menéndez Pidal : *La España del Cid* (1929). II. p. 571.

ولم ينقذهم إلا نزول المرابطين الأندلس [1] فى ذلك الحين ، فرفع ألفونس الحصار وأسرع الى بلده لتحصينها . ثم كانت وقعة « الزلاقة Sacrajas » فى رجب ٤٧٩ هـ/ سبتمبر ١٠٨٦ م وانهزم ألفونس تلك الهزيمة القاصمة التى أبعدت خطره عن البلاد الاسلامية الأندلسية كلها الى حين [2].

فلما استقر يوسف بن تاشفين فى الأندلس وأقبل ملوك الطوائف يسترضمونه ويقدمون له المساعدات والألطاف، كان أحمد المستعين أكثرهم تقربا اليه. وعرف يوسفُ حرجَ مركز المستعين وصعوبة موقفه أمام ملوك النصارى، وانعقدت بينهما أواصر صداقة سيكون لهـا أثر بعيد فى مستقبل «سرقسطة» ، وحينما ساءت العلاقات بين يوسف وملوك الطوائف ، ومضى ينزعهم عن إماراتهم واحداً بعد واحد ، أسرع المستعين فأرسل ابنه عبد الملك عماد الدولة ، ليؤكد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ولاءه وإخلاصه لقضية الاسلام فى الجزيرة ، وليبين له أنه برىء من تهمة التآمر مع النصارى على جيوش المرابطين، وكتب اليه كتابا ، وردَّ عليه يوسف بن تاشفين بكتاب حفظت لنا المراجع صورته ، يؤكد له فيه حسن ظنه فيه وثقته من إخلاصه للمسلمين ، ويؤمنه على بلاده ويعده بالمعونة [3]. ولا نزاع فى أن يوسف بن تاشفين قدّر خطورة الدور الذى كان أمراء « سرقسطة » يقومون به فى تلك الفترة الحافلة بالمخاطر ، فقد كانوا يقفون كالحائل بين إمارات النصارى وما يليها من بلاد المسلمين فى شرق الأندلس [4]، ثم إنهم على رغم اتصالاتهم الكثيرة بالنصارى

---

(١) أخبار الثغر الأعلى فى هذه الفترة موجزة إيجازاً شديداً عند مؤرخينا المسلمين ، فلم يكن هناك بد من الاعتماد على المراجع النصرانية القديمة : راجع عن أحداث سرقسطة فى ذلك الحين :

Primera Crónica General (éd. M. Pidal, 1906) p. 538 à sqq.
Annales Toledanos Primeros (*España Sagrada*, XXIII, p. 385 sqq.
Historia Roderici apud : M. Pidal : *España del Cid.* op. p. 558.

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٠

Annales Complutenses en España Sagrada XXIII. p. 314.

(٣) ورد نص هذين الكتابين فى صورتين لا تختلف إحداهما عن الأخرى إلا فى ألفاظ قليلة : ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ ، الحلل الموشية ، ص ٦٠

(٤) هكذا قال المستعين بن هود فى كتابه إلى يوسف بن تاشفين ، ولم يصلنا نص كتابه وإنما وردت خلاصته فقط فى المرجعين المشار إليهما فى الهامش السابق .

وعلاقات الولاء التى كانت تربطهم بهم بين الحين والحين . لم يحالفوا أحداً منهم على المسلمين ، ولم يقفوا من جيوش المرابطين موقف الخيانة والتقاعس الذى وقفته إشبيلية وغرناطة ومالقة أثناء الصراع العنيف الذى دار بينهم وبين النصارى على حصن «لبيط Aledo» بعد موقعة الزلاقة بقليل [1].

وفى أثناء اشتغال المرابطين بأمراء الطوائف انتهز شانجُة راميرِز (Sancho Ramirez) الفرصة وهاجم إمارة سرقسطة هجوما عنيفاً وانتزع منها منشون (Monson) سنة ٤٨١ أو ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩م ، ثم تقدم لحاصر وشقة (Huesca) ومات محاصراً لها ، فمضى ابنه «بدرو» الأول يلح عليها بالحصار حتى استولى عليها فى ذى حجة سنة ٤٨٩ هـ / نوفمبر سنة ١٠٩٦ وقد دافع أحمد المستعين عن « وشقة » دفاعاً مجيداً دون جدوى [2] ، وقد وصف لنا ابن الخطيب معركة الكراز (Alcoraz) التى انتهت بسقوط المدينة تصويراً يعطينا فكرة عن عنف الصراع الذى كان محتدماً خلال هذه السنوات كلها بين المسلمين والنصارى حول مدائن سرقسطة والثغر الأعلى ، قال : « وفى سنة ٤٨٩ نازل العدو مدينة وشقة من عمالة المستعين وضيقوا بها ، وحشد المستعين جيوشاً من المسلمين وحمل إليها الميرة ، والتقى الفريقان ووقعت الحروب من لدن طلوع الشمس الى غروبها حتى كادت تأتى على الفريقين . وترك ابن هود المصاف على حاله وقصد مضربه لما ساء ظنه بيوم الكريهة ، فرفع ما كان به من المال ثم كر الى مقامه ، وأبلى الى أن كانت الهزيمة على المسلمين فى أخريات ذى القعدة من العام . ففُقد من الناس ما يناهز اثنى عشر ألفاً ، والتمس أهل « وشقة » الأمان لثلاثة أيام من يوم الهزيمة » [3] وقد استنصر المستعين أثناء هذا الصراع بحليفه ألفونس السادس صاحب ليون ، فأرسل إليه بعثاً قوياً شد أزره ، وتمكن المسلمون

---

(١) الحلل الموشية ، ص ٥٤ — ٥٦

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

Ballesteros : *Historia de España* : II. p. 323

(٣) أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

من أسر فارس من أكبر فوارس النصارى فى ذلك الحين وهو غرسية أوردونييذ (*García Ordóñez*) صاحب « نخرة *Nájera* »[1] .

واستشهد أحمد المستعين بعد ذلك بأربع سنوات فى معركة حاسمة دارت بينه وبين أرغون أيضاً[2] وهى معركة فالتييرا (*Valtierra*) (رجب ٥٠٣/يناير ١١١٠) ، وبوفاته فقدت سرقسطة آخر أمرائها الكبار الذين استطاعوا النجاة بها من الأخطار التى أحدقت بالأندلس الاسلامى كله فى ذلك الحين ، ذلك أن ابنه الذى خلفه وهو عماد الدولة عبد الملك لم يكن من طرازه ولا من طراز جده المقتدر ، وكان اعتماده على النصارى أشد وأظهر من اعتماد أبيه ، فنفرت رعيته منه ، وتحرج مركزه داخل بلاده . ومما زاد فى حرج مركزه اقترابُ المرابطين من بلاده وميل أهل سرقسطة الى الدخول فى طاعتهم أملا فى أن يقوموا بحمايتهم من جيرانهم النصارى[3] .

وقد استطردنا عن تتبع أعمال المرابطين العسكرية أثناء إمارة على بن يوسف ، واستقصينا أخبار سرقسطة حتى اقترابهم منها : فلنعد الآن إليهم لنتتبع جهودهم حتى نصل إلى تدخلهم الصريح فى شئون سرقسطة . قلنا إن على بن يوسف لم يكد يستقر على عرش الدولة المرابطية حتى عبر الى الأندلس فى نفس العام الذى تولى فيه (٥٠٠ هـ/١١٠٦م) . وكانت ظروف الممالك والامارات النصرانية قد تغيرت تغيراً عظيما خلال السنوات الأولى من القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) : توفى ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة بعد موقعة الزلاقة بعام واحد ، وخلفته ابنته الدونيا أوراكا (Dª Urraca) فانحسر الخطر المستمر الذى كان يتهدد المسلمين من هذه الناحية ، وتوفى كذلك الكونت هنرى البرغونى (Enrique de Borgona) صاحب كونتية البرتغال ، الذى كان يهدد غرب الأندلس كله وخلفته ابنته الدونيا تيريزا (Dª Teresa) ، ولم يعد الخطر ليتهدد بلاد المسلمين إلا من الناحية الشمالية الشرقية حيث ظلت الحرب

---

(١) Prieto Vives: *Los Reyes de Taifas*, p. 49

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢٠٢ P. Vives. *Los Reyes de Taifas*, p. 49

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٢

مستعرة يقودها أميران نصرانيان على جانب عظيم من النشاط ، هما ألفونسو الأول المعروف « بالمحارب » (Alfonso el Batallador) صاحب أرغون ورامون بيرنجير الثالث (Ramon Berenger III) صاحب قطلونية[1] ، وإزاء هذا التغير الظاهر استطاع المرابطون أن يتركوا الجبهة الشمالية الغربية التى شغلتهم إلى ذلك الحين ، ليتوجهوا بكل قوام إلى شرق الأندلس الذى كانت الاخطار تتهدده كما رأينا .

أقام علىّ بن يوسف أخاه « أبا الطاهر تميما » حاكما للأندلس . وجعل مركزه غرناطة[2] ، ولا نستطيع القول بأنه نقل عاصمة الأندلس إلى هذا البلد ، لأن قرطبة ظلت على حالها واسطة عقد البلاد ، وإنما كانت غرناطة أوفق للمرابطين ، لان معظم أهلها كانوا من بربر إفريقية ، ثم إنها كانت أقرب إلى شرق الأندلس وإلى إفريقية مصدر الأمداد .

موقعة أقليش[3]

وعجل « تميم » بالمسير لحرب قشتالة ، وكان عليه قبل أن يدخل أرضها أن يقضى على الحامية النصرانية التى كانت تحتل حصن أقليش (أو أقليج Uclés) شرقى طليطلة ، وكانت على طريق المسلمين الى بلنسية وسرقسطة تحول بينهم وبين القيام بعمل حاسم فى هذه

---

(1) Francisco Codera : La Decadencia y Desaparición de los Almorávides en España (Madrid 1899), p. 7.

(2) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٣

(3) هذه الواقعة هى موضوع الوثيقة الأولى التى نشرها هنا ، وهذه هى المراجع غيرالعربية التى تتحدث عنها :

Cronicon de Burgos en *Esp. Sagr.* XXIII p. 310.
Annales Toledanos en *Esp. Sagr.* XIII. p. 327
CODERA : *Decadencia...*, 10-11
BALLESTEROS : *Hist. de Esp.* II. pp. 232-233

ولم يذكرها من المراجع العربية المنشورة بالتفصيل إلا روض القرطاس : ص ١٠٣ — ١٠٤ والوثيقة التى ننشرها تعطينا عنها تفاصيل وافية . وقد ذكر عبدالمنعم الحميرى عن أقليش أنها قاعدة كُورَ شَنْتَبَرِيَّةَ وذكر أن فيها جامع كبير .(الروض المعطار : ص ٢٨) وهى الآن فى مديرية قونقة *Cuenca* وتابعة لمركز تارانكون Tarancón .

cf: LÉVI-PROVENÇAL *La Peninsule Ibérique au moyen-âge d'aprés Kitab ar-Rauḍ al-miʿṭār* (Leiden 1938) p. 35

الناحية: فحاصرها المرابطون ، وكان ألفونسو السادس يعلق عليها أهمية كبرى ، فأخذ الأهبة للمسير لدفاع المرابطين عنها ، وكانوا قد قضوا على الكثير من جندها وألجأوا البقية الى التحصن بقصبة البلد « فأشارت عليه زوجته أن يوجه ولده عوضاً منه ، فيكون مواجها لتميم ، لأن تميم ابن ملك المسلمين وشانجة ابن ملك الروم ، فسمع منها ، فبعث ولده شانجة فى جيوش كثيرة من زعماء الروم وأنجادهم » كما يقول ابن أبى زرع : وكانت الوقعة حامية يذهب رواة المسلمين إلى أنه هلك فيها من النصارى ثلاثة وعشرون ألفاً ، وتُقرر الروايات النصرانية أن سبعة من أكبر فرسان النصارى هلكوا فيها، ولهذا يسمونها « موقعة الأكناد السبعة (Batalla de los Siete Condes) : وقد هلك فيها من المسلمين عدد عظيم كذلك ، وأراد تميم ترك البلد للنصارى والانصراف عنه لولا أن قواد لمتونة من المرابطين أصروا على الاستمرار فى القتال ، وقد مضوا فيه حتى انهزم القشتاليون انهزاما تاما (١٧ شوال ٥٠١ هـ / ٣٠ مايو ١١٠٨م) ، وقد قتل فى هذه المعركة « شانُجة » بن ألفونس وولى عهده ، وقد هاضت هذه الكارثة نفسه ، فتوفى بعدها بنيف وعام (٣ يونيو ١١٠٩ / ٢٩ شوال ٥٠٢ هـ)[١] .

وقد تشجع المرابطون بعد هذا النصر ، وأقبلوا فى سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ — ١١١٠ م ، يقودهم على بن يوسف نفسه ، ووُجهتهم طليطلة ، وإقليمها ، فشنوا عليها غارات عنيفة ، واسترجعوا من كبار مدائنها « مجريط » ووادى الحجارة (Guadalajara) ، وحاصروا طليطلة شهرا دون أن يصلوا الى نتيجة ، وعادوا الى قرطبة بعد أن ألقوا الرعب فى نفوس أهل قشتالة وأمنوا خطرهم ، فانتهز على بن يوسف فرصة الهدوء فى هذه الجهة ، وأرسل قائده الأمير « سير بن أبى بكر » فى حملة عنيفة الى غرب الأندلس استعادت مدائن شنترين (Santarén) وبطليوس (Badajóz) وبرتقال (Oporto) ويابُرة

---

(١) وقد ذكر ابن أبى زرع خطأ أنه توفى بعد المعركة بعشرين يوما. روض القرطاس ، ص ١٠٣

CODERA, *op. cit.*, p. 10, 239-242
BALLESTEROS : *Hist. de Esp.* II. p 232-233

(Evora) وأشبونة (Lisboa) (٥٠٤ هـ/ ١١١٠م)[١]، وقد والى المرابطون الحملات على طليطلة خلال السنوات التالية كلها دون أن يصلوا الى نتيجة .

وكان مركز الاسلام فى شرق الأندلس قد تحسن تحسناً كبيراً بعد أن استعاد المرابطون بلنسية من النصارى فى سنة ١١٠٢ م . بعد أن أقامت هى وإقليمها تحت سلطان رودريجو دياذ دى بيثار المعروف بالسيد القمبيطور (El Cid Campeador) قرابة السنوات العشر (٤٨٦ هـ/١٠٩٣م — ٤٩٥ هـ ١١٠٢م) وقد استخلصها من أيدى رجال هذا المغامر القشتالى القائد المرابطى أبو عبد الله محمد بن مزدلى ، بعد كفاح طويل مرير مع زوج السيد «شيمانة» (Chimena)وألفونس السادس، ولم يغادر النصارى بلنسية إلا بعد أن أشعلوا فيها النار ، وجعلوها كومة رماد [٢] ، ولكن عودتها قوّمت الجبهة الاسلامية فى شرق الأندلس ، وفتحت الطريق أمام المرابطين لتأمين سرقسطة والثغر الأعلى ، وأمنت ما يليها إلى الجنوب من البلاد مثل مرسية ومالقة .

وكانت أحوال « سرقسطة » تسير فى ذلك الحين من سيء إلى أسوأ : وكان أهلها قد سكنوا خلال المدة الماضية لما كان من همة أميرهم «المستعين» واقتداره على مصانعة «السيد» و«الفونسو السادس» والنجاة ببلاده من شرها. وقد أخذ المؤرخون عليه صداقته مع « السيد » وإيواءه إياه واستخدامه له فى حروبه ، وأخذوا عليه كذلك وقوفه مكتوف اليد أمام ما كان « السيد » ينزله بأهل بلنسية من الويلات [٣] ؛ ولكن الرجل لم يكن ليستطيع فعل شيء

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

(٢) لا يتسع المقام هنا للكلام عن « السيد القمبيطور » وعلاقته بالمسلمين وفظائعه فى بلنسية . وقد انجابت الآن كثير من الشكوك التى كانت تحيط بحياة هذا الفارس القشتالى الذى جعلته أشعار الملاحم الاسبانية أعظم رجال عصره ، ثم جاء منندذ بيدال فجعله أعظم أبطال التاريخ الاسبانى إطلاقاً فى كتابه المعروف La España del Cid وقد قرر فيه آراء تستدعى من جانبنا استدراكا شاملا .

(٣) راجع ما يقوله « ابن عذارى » فى القطعة التى نشرها ليفى بروفنسال من الجزء الرابع من « البيان المغرب » فى مجلة الأندلس :

Lévi Provençal: *La Toma de Valencia por el Cid.* Al-Andalus, Vol. XIII, 1948, fasc. 1 p 123

لأنه كان بين المطرقة والسندان ، ولو اتفق «السيد» و«ألفونسو السادس » عليه لضاعت سرقسطة من ذلك الحين . ثم إن قوات المرابطين كانت بعيدة عنه فى مرسية ، ولم يكن فى استطاعتها الوصول الى بلاده . فلما توفى السيد فى سنة ٤٩٢ هـ/١٠٩٩ م ، أمن المرابطون بعض الشيء ، وبدأت آمالهم تعود فى الاستيلاء على شرق الأندلس كله ، وحمايته من أذى المغامرين من فرسان النصارى وملوكهم .

وتدل الدلائل كلها على أن المرابطين وجهوا معظم همهم فى ذلك الحين الى شرق الأندلس، فأقام على بن يوسف أخاه أبا الطاهر تميما عاملا على الاندلس ، وندب هذا أكبر قواده « محمد بن الحاج » قائداً لجيوشه فى الشرق وجعل مركزه مرسية ، وجعل معه نفراً من أكبر قواد « لمتونة » تذكر المراجع منهم محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة وأبا بكر ابراهيم بن نافلوت أو « تافلويت » وجعل مع كل منهم قطعة كبيرة من الجند يخرج بها للغزو فى نواحى سرقسطة وبرشلونة وما يليهما من أراضى النصارى ،وكان أبو بكر إبراهيم ابن تافلوت حاكما مدنيا لمرسية وإقليمها [1] .

وهلك المستعين بن هود — على ما مر — فى سنة ٥٠١ هـ ، وخلفه ابنه عبدالملك عماد الدولة ، ولم يكن من نسيج أبيه ، فبدأت مخاوف أهل سرقسطة تتزايد ، وكان عبد الملك شديد الخوف من أن يسير « المرابطون » من مرسية ويستولوا على بلاده ، فجعل يميل الى جيرانه النصارى ميلا قويا ، وخشى السرقسطيون مغبة ذلك ، فشرطوا عليه « ألا يستخدم الروم ولا يلابسهم ، فنقض بعد أيام يسيرة ذلك ، لما استشعر من ميل الناس الى الملثمين » [2] .

وكانت الجبهة النصرانية قد جد عليها عامل جديد سيكون بعيد الأثر فى مصير الأندلس الاسلامى ، ذلك هو صعود « ألفونسو الأول » الملقب « بالمحارب » (Alfonso el Batallador) عرش أرغون سنة ٤٩٨ هـ/سنة ١١٠٥م، فقد كان فارساً جلداً متجدد الهمة شديد الطمع فيما

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ١٠٤
(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ص ٢٢٥

جاوره من بلاد المسلمين . وكان الى نشاطه وذكائه سعيد الحظ ، إذ أنه تزوج « أوراكا Urraca » ابنة ألفونس السادس الوحيدة ووارثة ملكه ، فلما توفى هذا انضمت ليون وقشتالة الى أرغون ودخلت فى طاعته كذلك إمارتا «جليقية» و«البرتغال» وكانتا تؤديان اليه الجزية ، فأصبح « ألفونسو المحارب » بهذا يملك معظم شبه الجزيرة ، لا يخرج عن سلطانه إلا قطلونية فى الشرق وبلاد المسلمين ، وكان قد ورث عن سلفه وأخيه « بدرو » الحماس المسيحى والرغبة فى الاستيلاء على ما بيد المسلمين من بلاد ، وكان «بدرو» قد حوّل الكفاح بين الاسلام والنصرانية فى شبه الجزيرة الى حرب صليبية ، لأنه « لما أسفرت الحرب الصليبية عن النجاح ، وفاز الصليبيون بافتتاح بيت المقدس ، أعلن البابا بسكال الثانى الحرب الصليبية فى إسبانيا ضد المسلمين ، وإذ كان النصارى الاسبان قد مُنعوا من مرافقة الصليبيين الى بيت المقدس ، فقد رأى بدرو ورعاياه أن يشهروا الحرب الصليبية فى إسبانيا ذاتها ضد (أعداء الدين) »[1]. بهذه الروح الجديدة سار ألفونسو المحارب فى حربه مع المسلمين ، وكانت وجهته من أول الأمر « سرقسطة » إذ كانت أعظم مدائن الشمال الشرقى ، وكانت تتراءى أمامه فريسة سهلة لا يكاد يعصمها منه غير « المرابطين » . وزاد طمعه فيها وفاةُ المستعين وقيام ابنه عبدالملك عماد الدولة بالأمر من بعده ، ولولم يُشغل ألفونس عن«سرقسطة» بما نشب من الحروب بينه وبين زوجته أوراكا وأنصارها ، لتقدم سقوط سرقسطة فى يده بضع سنوات .

ولم يكن لعبد الملك بن هود بد من مداراته . ويبدو أن عبد الملك أسرف فى المداراة والانكماش أمام الفونس المحارب ، فخشى المرابطون أن ينتهى الأمر بضياع « سرقسطة » ، فسير محمد بن الحاج قائدَه محمد بن فاطمة فى جيش صغير نحوها ، فلما اقترب منها خشى أهلها أن يسرع أميرهم بالاستنجاد بالنصارى ، فأشاروا عليه « بأن ينصرف عنهم ، ولا يبدأ بالفتنة ، ويجنى عليهم

(1) اشباخ : تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين (تعريب الأستاذ محمد عبد الله عنان) : ج ١ ص ١٤٦

استغاثة أميرهم بالروم ، فانصرف عنهم »[1]. وزادت مخاوف عبدالملك من ناحية المرابطين ، وعول على الاستنجاد بالروم رغم ما كان أهل البلد قد شرطوا عليه من عدم الاستعانة بهم أو محالفتهم ، وبلغ الخبر محمداً بن الحاج قائد المرابطين ، فأسرع بالسير نحو سرقسطة سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م ، وعجل عبدالملك بالاستعانة بألفونس ، فأسرع محمد بن الحاج وتمكن من دخول البلد واحتلاله ، وخرج عبدالملك بن هود إلى الشمال واستقر بحصن روطة (Rueda) تحت حماية الفونس الأول المحارب ملك أرغون ، وبذلك انتهى الدور الأول من تاريخ بنى هود فى سرقسطة ، وسيتجدد لهم الأمر فى نواح أخرى من الأندلس فى أواخر أيام الموحدين ، ويبدأ بذلك الدور الثانى من تاريخهم .

فلما تمكن الأمر للمرابطين فى سرقسطة تجردوا لحرب رامون بيرنجير الثالث كونت برشلونة ، وكان من ألد أعداء المسلمين ، لا يزال يناجزهم ويعتدى على بلادهم ما أمكنته الفرصة ، فخرج محمد بن الحاج فى حملة قوية نحو برشلونة فى سنة ٥٠٨ هـ/١١١٤ م . وصاحبه القائد محمد بن عائشة ، ومر الجيش فى طريقه إلى برشلونة بحصن ثرفيرا (Cervera)[1] فخربه ، ثم وصل إلى أحواز عاصمة قطلونية ، واجتهد المرابطون فى تخريب أرباضها وزروعها ، وعجزوا عن الاستيلاء على البلد لحصانته ، وعادوا محملين بالمغنم الوافر ، ويبدو أن الغنائم كانت كثيرة جداً ، لأن محمداً بن الحاج أرسلها مع معظم الجيش على الطريق الكبير (الرومانى ؟) ، أما هو ففضل أن يختصر الطريق مع قلة مختارة من جنده فيهم محمد بن عائشة ، فسار فى مفاوز وعرة ومضايق مليئة بالمخاطر ، فانتهز جند برجلونة الفرصة ، وكمنوا له عند مضائق وعر قريب من حصن كونجست دل مارتوريل (Congost del Martorrell) وهاجموه « فقاتلهم قتال من أيقن بالموت ، واغتنم الشهادة ، إذ لم يجد منفذاً

---

(١) أخذت الاسم الصحيح لهذا الحصن من الرواية النصرانية ، وقد ذكر ابن ابى زرع فى وصفه لهذه الحملة حصناً باسم « البرية » وربما كان هذا اللفظ تحريفا من الناسخ لاسم الحصن .
انظر :
CODERA : *Decadencia*... p. 21
وابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ١٠٤

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٢

يخلص منه ، فاستشهد رحمه الله . واستشهد معهم جماعة من المطوعة ، وتخلص منهم القائد محمد بن عائشة نفر بالحيلة إلى بلاد المسلمين »[1] (٥٠٨هـ/١١١٤م) وكانت لهذه الكارثة رجة كبرى فى بلاد الأندلس ، وعجل الأمير على بن يوسف فأقام الامير أبا بكر بن ابراهيم بن تافلوت المسوفى[2] حاكم مرسية إلى ذلك الحين ، حاكما على شرق الأندلس . وقد أصيب محمد بن عائشة فى هذه المعركة اصابة لم يلبث أن فقد بصره بسببها فيما بعد [3].

وتجرد أبو بكر ابراهيم بن تافلوت لحرب برشلونة للأخذ بثأر هذه الهزيمة ، فجمع جنداً كثيرين وسار بهم الى بلنسية ثم الى سرقسطة ، وجمع من نواحيها من استطاع من الجند ، وسار فنزل ببرشلونة وضيق عليها وأنزل بمزارعها خرابا شاملا [4] .

وكان الأمير علىّ بن يوسف قد عزل أخاه تميما عن ولاية الأندلس واستبدل به الأمير سير بن أبى بكر ، فأقام فى الولاية حتى وفاته سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣ م فـولىّ حكم الأندلس مكانه الأمير محمد بن فاطمة ، فأقام حاكما الى أن توفى سنة ٥١٠ هـ/١١١٥م فخلفه فى هذا المنصب الكبير الأمير عبدالله مزدلى ، وكان من كبار قواد المرابطين ، فأبدى نشاطاً عظيما فى حرب النصارى ، ولم يقصر جهوده على إقليمى طليطلة وغرب الأندلس كما كان سابقوه يفعلون ، بل اتجه بهمته الى الثغر الأعلى ، وكان الضغط النصرانى قد اشتد عليه من كل ناحية : كان الكونت رودريجو نونييث Rodrigo Nuñez (يسميه ابن أبى زرع « بنى الزند غرسيس ») صاحب « وادى الحجارة » قد سار الى « مدينة سالم » فحصرها ، فسار اليه عبدالله مزدلى واضطره الى الفرار تاركا عسكره وأثقاله ،

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٤

(٢) يرد اسم هذا القائد عادة دون نسبه ، وقد عثرت على نسبته تلك عند ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ص ١٨٨

(٣) اختص ابن الأبار ابراهيم بن تافلوت بمادة من مواد « المعجم و أخبار أبى على الصدفى » (ص ٥٥) ومنها نعرف أنه ابن يوسف بن تاشفين ، وأنه كان يعرف بابن تيشت . ويسمى ابن الأبار هذه الوقعة « بوقيعة البورت » .

(٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

ثم توجه الى أقليم سرقسطة ليدفع عنه هجوماً عنيفاً قام به ألفونس الأول المحارب صاحب أرغون ، واشتبك أبو عبد الله مزدلى معه فى قتال عنيف استشهد فيه سنة ٥٠٨هـ/١١١٥م[1] ولم تحدد لنا المراجع مكان ذلك اللقاء.

وفى هذه الأثناء كانت الحرب بين أبى بكر بن تافلويت قائد المرابطين فى سرقسطة وبن رامون برنجير صاحب برشلونة مستمرة على أشدها ، وانكسر المرابطون كسرة شديدة فى سهل برشلونة فى أواخر سنة ٥٠٨هـ/١١١٥م . وبعد ذلك بسنتين توفى ابن تافلويت آخر كبار حماة شرق الأندلس من المرابطين[2] ، واشتد الضغط على سرقسطة وبدا بوضوح أن مصيرها الى النصارى (٥١٠هـ/١١١٧م).

وفى أوائل سنة ٥١١هـ/١١١٧م تحرج أمر المرابطين فى شرق الأندلس بل فى الأندلس عامة بعد أن تخطف الموت كبار قوادهم على ما رأينا ، وبعد أن استشهدت زهرة رجالهم فى ميادين الجهاد جماعة بعد جماعة ، فاضطر على بن تاشفين إلى الجواز بنفسه ، فأقبل إلى قرطبة فى صفر من ذلك العام ، وأقام محمد بن عبدالله مزدلى على قيادة جيوش المرابطين فى سرقسطة وزوده بحشود من الجند والمطوعة . وكان « ألفونس المحارب » قد أقبل يحاصر سرقسطة وأذاق أهلها بلاء شديداً ، فلم يزل محمد بن مزدلى يدافعه عنها حتى ألجأه إلى رفع الحصار . وبعد عام من الصراع العنيف توفى محمد بن مزدلى ولم يتسع المجال أمام المرابطين لتولية خلف له ، فبقى البلد أعزل لا يكاد يحميه أحد . فانتهز ألفونس الفرصة وأقبل يحاصر البلد من جديد[3] (٥١٢هـ/١١١٨م).

وزاد طمع ألفونس حينما وجد إقليم سرقسطة خالياً من جند المرابطين . فحاصر «لاردة» وكاد يستولى عليها ، فأرسل أهلها يستنجدون بعلى بن يوسف فبعث أخاه تميما وأقامه عاملا على شرق الأندلس ، فسار تميم فى جيش كبير

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

CODERA : *Almorávides...* p. 249

(٢) ابن الخطيب ، الاحاطة (مخطوط الاسكوريال) ورقة ٩٨

(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

CODERA, *Almoravides*, p. 250

وسار معه عمه يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة ، وثبتوا لألفونس حتى أجبروه على رفع الحصار عن « لاردة » بعد أن فقد نحو عشرة آلاف من جنده[1] ومضوا يتعقبونه فى بلاده . ولم يستطع تميم الاستمرار فى القتال ، لأن أمور المرابطين اضطربت فى مراكش ، فاضطر إلى العودة إلى بلنسية . ومنها رجع إلى مراكش ، وكان بموم بأمر مرسية لعلى بن يوسف أخوه أبو إسحاق إبراهيم ، فأسرع إلى سرقسطة ليرتب أمورها بعد انصراف تميم ، ولم يطل مقامه فيها ، وعاد إلى مرسية[2] وخلا الجو بذلك أمام « ألفونس المحارب » فعاد هذه المرة « فى أمم كالنمل والجراد ، ونزلوا معه بها ، وشرعوا فى قتالها ، وصنعوا أبراجا من خشب تجرى على بكرات ، وقربوه منها ، ونصبوا عليها عشرين منجنيقا ، ووقع طمعهم فيها ، فاستمر الحصار عليها حتى فنيت الأقوات وفنى أكثر الناس جوعا . فراسلوا ابن ردمير (ألفونس الأول المحارب) على أن يدفع عنهم القتال إلى أجل . فان لم يأتهم من ينصرهم خلفوا له البلد وأسلموها له ، فعاهدهم على ذلك ، فتم له الأجل ، ودفعوا إليه المدينة ، وخرجوا عنها إلى مرسية وبلنسية . وذلك فى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، وبعد دخولها وتملك النصارى إياها وصل من العدوة جيش من عشرة آلاف فارس لاستنقاذها ، فوجدها قد فرغ منها وملكها العدو ونفذ حكم الله فيها »[3].

هكذا سقطت سرقسطة قاعدة الاسلام الكبرى فى شرق الأندلس ، وعجز المرابطون عن استردادها ، لأن أمور دولتهم كلها كانت قد اضطربت بسبب ظهور الموحدين واشتداد القتال بينهم وبين المرابطين فى افريقية .

وعلى رغم المصاعب التى أحاطت بعلى بن يوسف فقد عبر إلى الأندلس سنة ٥١٣هـ/١١١٩ م ليغيث أهلها من ضغط أمراء النصارى فى كل ناحية ، وقد بذل على بن يوسف جهده وأقام أخاه تميما حاكما عاما على الأندلس من جديد ، فمضى هذا يشن الغارات على إقليم طليطلة ، ولم تعنه الظروف على الالتفات

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦
(٢) ابن الخطيب ، الأحاطة (مخطوط الاسكوريال) ص ٩٨
(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦

إلى ناحية الشرق . وأقام أهل شرق الأندلس يلحون فى طلب النجدات حتى استمع اليهم تميم وبعث اليهم قوة مرابطية صغيرة يقودها الأمير أبو اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وتحمس أهل شرق الأندلس حماساً عظيماً وخرج كل من استطاع الخروج منهم حتى العلماء من أمثال أبى على الصدفى وأبى بكر بن العربى لم يترددوا فى اغتنام الشهادة . وكان ألفونس محاصراً «لقلعة أيوب» ، فساروا نحوه . والتقوا معه عند بلدة (كتندة) على مقربة منها ، وهناك دارت رحى معركة عنيفة انهزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، ومات من المطوعة بضعة آلاف فيهم أبو على الصدفى ، ويؤكد المقرى أن أحداً من جند المرابطين لم يهلك فيها . لأنهم تركوا المطوعة يصلون نيران المعركة وحدهم. (ربيع الأول أو الثانى سنة ٥١٤ هـ/يونيو أو يوليو سنة ١١٢٠)[١] .

ويكفى للدلالة على الصدى البعيد الذى كان لهذه الهزيمة فى بلاد المسلمين أن تذكر أن علياً بن يوسف جاز الى الأندلس بنفسه فى العام التالى (٥١٥ هـ ١١٢١ م) لكى يأخذ بثأر هذه الهزيمة : ولم يستطع التقدم نحو سرقسطة ، لأن الطريق اليها كان قد أقفل كما ذكرنا ، فاكتفى بمغازاة نواحى طليطلة والبرتغال وأثخن فيها واستولى على قلعة قلمرية Coimbra [٢] على شاطىء المحيط الأطلسى . ثم عاد الى افريقية بعد ذلك تاركا أمور الاندلس لاخيه تميم وسترى أن تميا سيحاول بعد ذلك الالتفات الى سرقسطة لاستنقاذها: ولكن محاولته ستكون هزيلة ، لأنه لم يجرؤ على الثبات للنصارى وانهزم أمامهم عند مكان يعرف بالقلعة أو القلاعة لم نستطع تحديد موقعه بالضبط(انظر مقدمة الوثيقة الثانية) .

---

(١) راجع عن معركة كتندة : ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦ — ابن الأثير ، ج ١٠ ص ٤١٤ — ابن الأبار : المعجم فى أخبار أبى على الصدفى ، ص ٧ — المقرى ، نفح الطيب ، ج ٣ ص ٧٥٩ (طبعة القاهرة).

San Juan de la Peña, *Cronicon*, p. 68.

Zurita, *Annales* Lib I Cap. XLIV.

Annales Compostelani Esp. Sacr. XXIII, p. 321.

(٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦

أشباخ ، تاريخ الأندلس . . . . ص ١٥٣

وكانت لهزيمة كتندة الفاسية نتائج بعيدة المدى فى مصير « الثغر الأعلى » الأندلسى كله ، إذ أن استيلاء « الفونس » على هذا الحصن المنيع المجاور « لدروقة » قد سهل له الاستيلاء على هذا البلد الأخير وعلى حصن « قلعة أيوب » المجاور له : وبهذا أصبح يسيطر سيطرة تامة على سهل الإبرو الأعلى ، ولم يعد من الميسور لجيوش المسلمين أن تمتد لانقاذ سرقسطة . وسترينا الوثيقة الثانية كيف أن المرابطين لم يجرؤوا بعد ذلك على مجرد الاقتراب من سرقسطة ، لأن « كتندة » « وقلعة أيوب » كانتا فى يد هذا المحارب الأرغونى الذى لا يكل ، وكان يقظاً لا تغفل له عين عن حراسة بلاده ، كلما استولى على معقل من معاقل المسلمين اتجهت به الهمة الى الذى يليه .

وكانت تلك آخر محاولة جدية قام بها المرابطون لاستنقاذ سرقسطة ، ولم يحاول أحد من أمراء المسلمين استعادتها بعد ذلك على رغم ما بذل المرابطون والموحدون بعد ذلك من محاولات : لم يتسع الوقت أمام المرابطين لاعداد العدة لاستعادة هذا البلد الكبير ، لأن المعركة الطويلة بينهم وبين الموحدين كانت تشتد يوما بعد يوم ، فلم يعودوا يستطيعون إرسال جيوش كبيرة إلى الأندلس . ولم يكن من المستطاع استعادتها إلا بجيش كبير ، لأن الفونس المقاتل صاحب أرجون أرصد قوته كلها للمحافظة على تلك الغنيمة العظيمة التى سقطت بين يديه ، وقد رأينا إصراره على أخذها وتركيز قواته كلها للفوز بها طوال نيف وعشر سنوات . ثم إن أهل الأندلس جميعاً ضاقت نفوسهم بالمرابطين ، وعما قريب تبدأ الثورة عليهم فى كل بلد أندلسى ، ولن يدع هؤلاء الأندلسيون فرصة يسيئون فيها إلى المرابطين إلا ابتدروها ، وسيقف المرابطون فى الأندلس موقف المدافع عن نفسه أمام مسلمى الأندلس . فكيف كان يتاح لهم التفكير فى استنقاذ هذا المعقل الاسلامى الذى ضاع الى الأبد ؟

هكذا سقطت « سرقسطة البيضاء » درة « الثغر الأعلى » وطليعة حصون الاسلام فى معركته الطويلة مع النصرانية في إسبانيا ، أضاعها الأندلسيون بما أسرفوا فيه من عداء المرابطين وأضاعتها المصادفة السيئة ، مصادفة ظهور الموحدين فى ذلك الحين .

ولقد رأينا ما بذله المرابطون في سبيل سرقسطة وشرق الأندلس : كم من جيش لهم هلك مناجزاً عن حومة الاسلام ، وكم من قائد لهم سقط في سبيل سرقسطة ولاردة وبلنسية وغيرها من حصون الاسلام ا ولكن شيئا من ذلك لم يُجْدِ ، فقد كان قضاء الله قد سبق ولم تعد تنفع في درئه حيلة.

أجل ، ولم يفقد هؤلاء المرابطون المجاهدون رغم ذلك كله الأمل في استنقاذ ما يمكنهم إنقاذه من حواضر الاسلام الأندلسي ونواحيه ، ولم تكد تسنح لهم الفرصة حتى انتدروها وأمامهم الحظ هذه المرة : ففي شعبان سنة ٥٢٤ هـ يوليو ١١٣٠ م توفي عماد الدولة عبدالملك بن هود أمير سرقسطة الذي ذكرنا كيف ترك البلد عند استيلاء المرابطين عليه ولجأ الى حصن « روطة » المعقل الوحيد الذي بقي للاسلام من إمارة سرقسطة . وهناك أقام في حماية « ألفونسو المحارب » صاحب أرغون ، وخلفه ابنه أبو جعفر أحمد سيف الدولة[1] ، الذي أبى رغم سوء حاله وانضوائه تحت لواء ملك نصراني — إلا أن يتخذ لنفسه لقباً خلافياً هو « المستنصر بالله » وهو لقب حالف الحظ السيء كلَّ من اتخذه من خلفاء الاسلام ! ويبدو أنه ضاق بسلطان « الفونس المحارب » عليه ، فتركه ودخل في تبعية خصمه الفونس ريموندبذ Alfonso Raymondez ملك قشتالة الذي تسميه المراجع العربية السليطين[2] ، وكان المرابطون قد استولوا أثناء حملاتهم المتوالية على الثغر الأعلى على طرطوشة ولاردة وافراغة Fraga ومكناسة Mequinez[3] ، ولم يستطيعوا الاستيلاء على « روطة » أكبر حصون هذه الناحية ، لأن « المستنصر » نزل عنها لملك قشتالة الذي منحه عوضاً عنها « نصف طليطلة » كما تقول مراجعنا الاسلامية ؛ والواقع أنه لم يعطه إلا بعض الأراضي المجاورة لطليطلة بصفة اقطاع .

وفيما بين سنتي ٥٢٥ ، ٥٢٦ هـ (١١٣٠ ، ١١٣١ م) استطاع « ألفونس المحارب » أن يستولى على طرطوشة ومكناسة بعد كفاح طويل ، ثم توجه بقواته نحو

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ص ١٣

(٢) أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان) ج ١ ص ١٧٢

(٣) CODERA, *Almoravides*, p. 12-13

« إفراغة » وكانت كتوكنز العقاب تشرف على نهر « أنجا » لحاصرها حصاراً شديداً ، وأسرع لنجدتها أمير مرابطي من قبيلة « مسوفة » سيكون له أثر عظيم في تاريخ الأندلس خلال عصر الموحدين وهو يحيى بن غانية جد بني غانية أصحاب الجزائر الشرقية ، وكان يلي بلنسية ومرسية لعلي بن يوسف ، وسار لنجدتها كذلك عبد الله بن عياض عامل المرابطين على « لاردة » ، وانضمت الى قواتهما قوة كبيرة من المرابطين أقبلت من جنوب الأندلس ، وكان ألفونس قد عول على الموت أو الاستيلاء على « إفراغة » وأقسم على ذلك هو وعشرة من خيرة رجاله ، مما يدلنا على مقدار الحماس والتفاني الذي كان يعمر نفوس هؤلاء الأسبان في هذا الدور من صراعهم مع المسلمين . وبلغ من رغبته في استنفار قومه أن أمر برفات القديسين فأتى بها الى الميدان إذكاء لروح الحماس الديني في قلوب الرجال ، وجعل الأساقفة والرهبان يقودون بعض الصفوف ، حتى التهبت نفوس جنوده حمية ، وأقبلت قوات المرابطين واشتبكت معهم مرتين لم توفق في كليهما ، فوقع اليأس في قلوب أهل البلد وعولوا على التسليم : ولكن ألفونس رفض وصمم على أن يفتتح البلد بحد السيف .

وهنا ثارت نفوس أهل البلد المجاهدين : واندفعوا يقاتلون قتال المستيئس ، وكر المرابطون على البلد مرة أخرى في عزمات قوية : واستدرجوا الجيش الأرغوني الى كمين وضعوه في الطريق ، ثم انقضوا عليه من كل ناحية ، وامتلكوا زمام المعركة ومزقوا الجيش الأرغوني شر ممزق ، وسقط من حماة النصارى وقوادهم وأساقفتهم في هذه المعركة نفر كبير في مقدمتهم « ألفونس المحارب » نفسه : سقط تحت سيوف المرابطين [1] في ختام هذا الصراع الرهيب الذي احتدم بينهم وبينه عشرات السنين (٢٣ رمضان ٥٢٨ هـ / ١٧ يوليه ١١٣٤ م).

(١) راجع عن موقعة إفراغة : الضبي : بغية الملتمس ج ١ ص ٩٥ ، ٤٠٦ — ابن الأثير، الكامل : ج ١١ ص ٢١ — ابن الخطيب ، الاحاطة (مخطوط الاسكوريال) ص ٢٨ — ابن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار ، ص ٢٤ — ٢٥
CRONICA DE ALFONSO VII en *España Sagrada*, XXI pp. 339 sqq
CODERA, *op. cit.* pp. 267-272
أسباخ ، نفس المصدر ، ص ١٢٢

هكذا فشل ملك أرغون فى الاستيلاء على إفراغة ولاردة. وارتفعت الروح المعنوية للمرابطين وتجدد نشاطهم، وبدوا كأنهم مبادرون الى الاقتراب من سرقسطة التى كانت قد أصبحت عاصمة أرغون. ولكن الظروف لم تسعفهم، ذلك أن الحظ عوض الجبهة النصرانية بملك آخر لا يقل نشاطاً ولا رغبة فى مغالبة المسلمين عن ألفونسو المحارب، ذلك هو ألفونسو السابع ملك قشتالة وليون ابن الملكة أوراكا — التى ألممنا بطرف من أخبارها — من زوجها ريموند البرغونى. كان قد تولى عرش قشتالة سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م. بعد أن توفيت أمه الطموح التى قضت فى ميادين القتال معظم عمرها [١]، ومن غرائب المصادفات أن عام ولايته كان عام وفاة أبى الطاهر تميم الذى ظل يقوم بأمر الأندلس خلال العشرين سنة الأخيرة، خلا بعض فترات قصيرة. وبوفاته أخذ أمر المرابطين فى الأندلس يهوى فى سرعة.

وليس هذا مقام ذكر ما تلا ذلك من أعمال المرابطين العسكرية فى الأندلس، لأنهم سيظلون بعد ذلك قرابة السنوات العشر يحاربون النصارى ويغازون بلادهم دون أن يوفقوا إلا إلى قليل، لأن شئون دولتهم فى افريقية كانت قد اضطربت اضطرابا زائداً، ولأن أهل الأندلس المسلمين انقلبوا عليهم فى كل ناحية، وقاموا عليهم يقتلونهم حيث وجدوهم، وانتهى أمرهم فى الأندلس وفى المغرب كذلك نهاية محزنة: أبادهم النصارى والأندلسيون فى الأندلس، وقضى على قواتهم الموحدون فى المغرب، ولم يبق منهم إلا فرع بنى غانية المسوفيين الذين اعتصموا بالجزائر الشرقية وظلوا يناوئون الموحدين حتى أيام الناصر الموحدى.

ويهمنا من ذلك كله أن دولة الاسلام فقدت سرقسطة الى الأبد، وسنرى فى الوثيقة الثالثة أن علياً بن يوسف كان مهموماً بأمرها يفكر فى استعادتها. ولكن محاولاته كلها لم تسفر عن شىء.

وكان الفونس المحارب قد نقل عاصمة ملكه إلى سرقسطة بعد استيلائه عليها مباشرة وحول مسجدها الجامع الى كنيسة. وأنزل فيها أعداداً عظيمة

(١) Ballesteros: *Historia de España*, II p. 137

من جنده وأهل أرغونة ، ومنحهم حقوقاً وامتيازات ، وتمكن خلال السنوات الثلاث التى تلت استيلاءه على سرقسطة من احتلال طركونة *Tarragona* عاصمة أسبانيا الرومانية ، وأعاد إليها أسقفيتها القديمة ، واستولى كذلك على « قلعة أيوب » ودروقة وتجرد للاستيلاء على بقية حصون « الثغر الأعلى » مثل وشقة وروطة ومكناسة فاستولى عليها : كما ذكرنا . واستولى خلفاؤه على افراغه [1]. وبهذا انتهى الثغر الأعلى كله وأصبحت أقصى حدود الاسلام فى شرق الأندلس بلنسية ومرسية ، وستكونان مسرحاً لأحداث عظيمة وحروب طويلة بين النصرانية والاسلام فى عصر الموحدين .

---

(1) Ballesteras' *Hist. de España*, II pp. 327 sqq.

الوثائق

الوثيقة الأولى :

موقعة « أُقليش » من المواقع الكبرى في عهد المرابطين ، وهى أحد الانتصارات الكبرى التى أحرزها هؤلاء اللمتونيون المتحمسون الذين خرجوا من مواطنهم فى إفريقية للذياد عن مصير الاسلام فى الأندلس . ويقول المؤرخ « يوسف أشباخ » في « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » فى تقدير هذه الموقعة « ويمكن أن نعتبر انتصار المرابطين فى أقليش فى ٢٩ مايو سنة ١١٠٨ م (١٧ شوال سنة ٥٠١ ﻫ) ذروة سلطانهم فى إسبانيا . ومن ذلك التاريخ تنحدر قوتهم فى اسبانيا عاماً بعد عام ، وتعصف روح الخروج والثورة بسلطانهم فى إفريقية والأندلس ، ويغدو سقوطهم فى القريب أمراً محتوما » (ج ١ ص ١٢٤ من ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان) ، ولدينا عنها تفاصيل كثيرة أوردتها فى الفصل التاريخى السابق ، ولا نحتاج لجهد كبير لنستبين أن هذه الوثيقة تضيف الى معلوماتنا عن تفاصيل هذه الموقعة شيئا كثيراً جديداً .

والغالب أن « ابن شرف » كاتب الرسالة هو أبو الفضل جعفر ابن أديب إفريقية أبى عبد الله محمد بن شرف الجذامى من بلدة « برجة » بالاندلس ، وكان من شعراء المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، وقد أورد المقرى له له فى « النفح » شعراً كثيراً وأخباراً متفرقة . والظاهر أنه دخل فى خدمة المرابطين بعد استيلائهم على « المرية » .

وقد أفرد ابن عبد المنعم الحميرى فصلا لأقليش فى « الروض المعطار » جاء فيه : « مدينة لها حصن فى ثغر الاندلس ، وهى قاعدة كورة شنتبرية وهى محدثة ، بناها الفتح بن موسى بن ذى النون ، وفيها كانت ثورته وظهوره فى سنة ١٦٠ ﻫ ثم اختار أقليش داراً وقراراً ، فبناها ومدنها ، وهى على نهر منبعث من عين عاليه على رأس المدينة ، فيعم جميعها ، ومنه ماء حمامها ، ومن العجائب البلاط الأوسط من مسجد جامع أقليش : فان طول كل جائزة

من جوانبه مائة شبر وإحدى عشر شبرا ، وهى مربعة متحوتة مستوية الاطراف (ص ٢٨) .

وتقع أُقليش Ucles اليوم فى مديرية قونقة Cuenca فى ناحية Tarancón فى إسبانيا كما ذكرنا .

cf. Lévi Provençal : *La Péninsule Ibérique*.... p. 35 et n. 3

وقد أورد كثير من المؤرخين أوصافاً مختلفة للمعركة التى نحن بصددها ولكن الوصف الذى تقدمه هذه الوثيقة دقيق يعطينا صوره واضحة جداً عنها ، فهو يصور لنا ترتيب الجنود فيها ثم يتتبع تطورها فى تفصيل عظيم القيمة من الناحية التاريخية .

رسالة

كتب بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض
رؤساء الغرب [1] إلى أمير المسلمين [2]
رحمه الله فى فتح أقليش أعادها الله [3] بقدرته

أطال الله بقاء « أمير المسلمين وناصر الدين » [4] ، عماد الأنام وعتاد الاسلام ، السعيد الأيام ، الحميد المقام ، كبيرى بالقدر وظهيرى على الدهر ، الذى أجله بحقه وأقر له بسبقه ، وأدام خلوده مؤيد الارادة مؤيد السعادة مجدد النمو والزياده . والحمد لله الجبار القهار الذى شد الأزر وأمد النصر ، وأعطى الفالج عن قسر ، ففلق عنه يد المماطل ، وفرق بين الحق والباطل ،

(١) كذا فى الأصل ، ويراد به « المغرب » وكان هذا اللفظ يطلق على الأندلس أيضاً فى ذلك الحين .

(٢) على بن يوسف بن تاشفين .

(٣) لم يتم فتح « أقليش » فى هذه الحملة ، إذ بقيت قصبة البلد فى يد النصارى ، ولهذا يقول : أعادها الله .

(٤) ما بين الشولات هو اللقب الرسمى الكامل لأمراء المرابطين .

(٥) الكتاب صادر عن الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين حاكم الأندلس وقائد هذه الحملة .

والحمد لله الذى أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام ، ونصر بسيفه الاسلام ، وغاظ به الكفار ، وجعل عليهم الكرة فولوا الأدبار . والله تعالى يشفع سعوده ويضمن مزيده ، وينصر جنوده بمنه .

ولما أن وضعنى أمير المسلمين أدام الله نصره حيث شاء من آلة التشريف والعز المنيف . وألحفنى من النعماء وأسحبنى أذيالها ؛ وصرف إلىّ من عدده وبلده ما أولانى نعمه ووالانى كرمه ، حفظتُ تلك الحرمة ، وشكرت لأستزيد من تلك النعمة ، وأخذت فى الاجتهاد فى الجهاد (ف ٥٤) عالقاً بسببه ، آخذاً بمذهبه . وهيأت من ماله عندى جيشه الموضوع بيدى ، وأجبت داعى الله بأعظم نية على أكرم طية ، لعزمة بيمناه رأسها وعلى تقواه أساسها وأصلها . وسرت عن حاضرة أغرناطة حرسها الله فى العشر الأواخر من شهر رمضان المعظم [1] بجيش تصم صواهله وتظم كواهله ، راياته خافقة وعزماته صادقة ، ونبراته على ألسنة السعد ناطقة .

ومررنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين على جهات سمعت منادينا ، وتبعت هادينا . وانقادت وراءنا أعدادٌ وأمداد ، برزوا من كمون ؛ وتحركوا عن سكون ، وأنخنا بناحية بَيَّاسة ، وقد توافد الجمْع ومُلىء البصر والسمع .

وأخذت فى الرأى اخمّرُه والعزم أضمره والذيل أشمره ، وجددت الاستخارة لله تعالى والاستجارة به ، وابتهلت إليه داعياً ضارعاً ، وعولت فى كل أمورى على حكمه خاضعاً متواضعاً .

ولحقنا بطرف بلاد العدو أعادها الله ، فوطئناها من هنالك ، وقد بان عنوان الأهبة بعوالتام بنيان الرتبة ، وسرنا بجيش يفيض فيضاً على أرض تغيض غيضاً ، ولسيول الخيل إغراق ، ولبروق البواتر إشراق ، وقد نطقت ألسنة الأعنة بـ[illegible] قدام [illegible] وأشرقت كواكب الاسنة فى عتام القتام وسدت [illegible] كل نهج [illegible] وسبيل ، واستقلت الرايات عن كل قبيل بقبيل وأفضت

(1) سنة ٥٠١ هـ مايو سنة ١١٠٨ م .

بنا الخيرة إلى المدينة الحصينة « أقليش » قاعدة القطر وواسطة الصدر ، ذات العدد العديد والسور المشيد ، فبدر السابق وشفع اللاحق .

وغدونا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال ، فدرنا بها دور الحلقة بنقطتها ، واكتنفناها اكتناف الشيخة لسبطتها ، وبهت القوم ، واتسع البحر عن العوم ، وحاروا وخاموا ، حين راموا ، وجئنا بكل ضرب من الحرب ، نخسف عاليها وننسف هاويها ، ونلزها بالرماح ، ونهزها هز الغصن في أيدي الرياح ، حتى فض الختام وعض منه الابهام ، وعجل الله بالنصر وفتحها بالقسر . ونفخ في صورهم ، ودارت دائرة السوء بدورهم ، ومحقتهم السيوف محق الربا ، وأذرتهم ريح النصر فصاروا هبا ، وبطحوا بطح زرع الحصيد ، وبسطوا بسط كلب الوصيد ، وأخذتهم فجأتنا أخذة ، ونبذت بهم سطوتنا نبذة ، نخروا إلى الأذقان ، وسيقوا إلى الموت والاذعان ، فما كدنا ننزل حتى كدنا ذلك المنزل ، وما أنخنا حتى رضخنا ، ولا وصلنا إليه حتى حصلنا عليه ، فوردنا ما أردنا .

ولما استحر فيهم القتل ، واجتث منهم الأصل ، وضاق بهم المزدحم ، وغص ذلك الملتحم ، قصر الوقت المبغت وشغل الأخيذ (ف٥٥) عن الفلت ، وألهى الكثير عمن قل ، ونام الجم الغفير عن الفل ، وعاذت [1] بقاياهم بقصبة المدينة فولجوها كما يلج العصفور ، ويقوم العثور ، قد غلقوا الأبواب ، وأسدلوا الحجاب ، ونحن نصل الجد ونوحر [ ] [2] لأفل غرب ، ولأمكث حرب ، نجتث الجراثم . ونحتز الغلاصم ، ونخرب الديار وبنيانها ، ونهدم البيع وصلبانها ، ونتتاحف بهدايا السبايا ، ونتكاشف عن بقايا الخبايا ، ونصرح [3] بنيانا صدعته الحتوف وغلبته السيوف ، فلا طلاله هدم وعلى رسومه ردم ، حتى علا على الشرك الايمان ، وبدل الناقوس بالأذان ، وزحزحت الهياكل عن موضعها ، وطرحت

---

(١) في الأصل « عادت » .

(٢) كذا في الأصل من غير نقط يعقبه بياض بقدر كلمة .

(٣) في الأصل : ونتاحفوا ونتكاشفوا ، نصرحوا ، وهي أخطاء وقع فيها الناسخ نتيجة للاملاء ، وهذه الظاهرة تدل على أن أهل الأندلس كانوا يضغطون على أواخر الكلمات ، وتلك حقيقة لغوية (مونيتيكية) جديرة بالملاحظة .

النواقيس عن بيعها ، ولاذ بنا من هنالك من المسلمين عائذين بنا مستسلمين لنا ، فناشدونا بالملة وحرمتها ، وكشفوا لنا عن الخـلة وسدتها ، وفروا من الحملة إلى الحملة ، فأوينا شاردهم ، وأقمنا قاعدهم ، فانجابت كُربتهم ، وعادت بعد البوار ومجاورة الكفار بشرٍ دارملتهم ، وأنار لهم الاسلام على منار الايمـان المجدد ، واشتهر فيهم التوحيد اشتهار الحسام المجرد ، وكشف الدين عن مضمره ، وخطب الحق المبين على منبره .

وأقمنا بقية يومنا على ذلك إلى أن خام النهار ، وحان من الشمس الاصفرار . فعند ذلك أرحنا البواتر ، وغيضت تلك الدماء الهوامر (١٥٦) وغدا الخميس في الخميس ، مبنياً على ذلك التأسيس ، يجر أذيال الظفر في العدد الأوفر ، يشفع الأولى بالتوالى ، ويشترى العولى بالعوالى ، فأصبحنا في عز وأنس ، وأصبحوا لاترى إلا مساكنهم كأن لم يغنوا بالأمس .

وتضامت تلك العصبة إلى تلك القصبة ، والقوم في السجن ، والحصن في الحصر ، كالواحد في العالم . والاصبع في الخاتم ، « والحصور مأسور وصاحب الحائط مقهور »[1] ، ولم نزل نوسعهم قتالا ونوسعهم ضرّاً ونكالا مسافة اليوم إلى أن جزر النهار مدّه ، وبث الليل جنده ، فعدنا إلى محلنا وقد أمّل الكالّ أينه ، وغلبت الساهر عينه ، وكنت لم آل احتراساً للمحلة بطلائع تحرس جهاتها وتدرأ آفاتها ، وفي القدر ما يسبق النذر ويفوت الحذر ، ولكن كفاية الله خير من توقينا .

وكان الطاغية [2] زاده الله ذلا قد حشد أقطاره وحشر أنصاره ، وأبعد في الاستصراخ مضماره ، وعبأ جيشاً قد أسرا إلى ذمر [3] ، وانطوى على غمر ، فأقدم وصمم ، وبئس ما تيمم ، فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية

---

(١) يبدو أن هذا كان من الأمثال الأندلسية .

(٢) يريد ألفونس السادس صاحب قشتالة وليون .

(٣) كلمة لم أستطع قراءتها والذمر زأر الأسد .

اذفونش[1] وصاحب شوكتهم ألبرهانس[2] والقمط بقبذرة[3] وقواد بلاد طليطلة وصاحب « قلعة النسور » و « قلعة عبد السلام » . وكل قاص ودان ، (٥٦ ف) وعاجل وأخزى الله جميعهم، وطل نجيعتهم ولا أقام صريعهم .

وهذا دعاء لو سكتُ كُفيتُه   لأنى سألت الله ربى وقد فعل

وطرقوا من طرف مجتمعهم يريدون الغرة ، ويظهرون صلفاً تحت الغرة، وتقدموا فتندموا ، ودنوا فهووا ، ووصلوا فحصلوا . وأرسل الله تعالى من جنده فتى كانوا قد سبوه صغيرا واقتنوه أسيرا ، ولله تعالى فيه خبيئة أعدها من عنده وبعثها لجنده ، ونزع[4] الفتى إلينا من معسكرهم منبئاً بهم دالا عليهم . وكاشفا بهم عن النبأ العظيم ، ومطلعاً منهم على المقعد المقيم ، فعند ذلك ثارت ثائرتنا ، ودارت على مركز التوفيق دائرتنا ، وقام القاعد وأشار البنان والساعد ، وتضام القريب والمتباعد ، والليل قد هدأ ، والصبح

---

(١) الاشارة هنا إلى « سانشو » وحيد ألفونس السادس الذى قتل فى هذه المعركة .

(٢) البرهانس هى الصيغة العربية للفارس القشتالى المعروف Álvar Hañes ابن عم السيد القمبيطور وعدوه اللدود فيما بعد ، ونصير ألفونس السادس صاحب قشتالة وليون فى كل حروبه ، وقد اشترك فى جميع المواقع التى وقعت بين ألفونس والمرابطين ، وقد كان من كبار فرسان قشتالة فى معركة « أقليش » وانهزم مع من انهزم ، وخسر اقطاعيته فى قرية توريتا Zorita حينما استولى المرابطون على قونقة Cuenca بعد انتصارهم فى أقليش ، وقد أقامه الفونس بعد ذلك حاكما لطليطلة ، فقام بالدفاع عنها حينما حاصرها «المرابطون» فى سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩م . وقد توفى سنة ١١١٤م على يد أهل شقوبية Segovia فى الحروب التى استعرت بين الفونسو المقاتل صاحب أرغون والملكة « أورّوكا » صاحبة ليون وقشتالة .

cf: MENÉNDEZ PIDAL: *La España del Cid*, II p. 626

(٣) الاشارة هنا إلى الكونت « جارثيا رِدِ كَبْرا » Garcia de Cabra مؤدب الأمير « سانشو » الذى قتل فى المعركة .

cf: BALLESTEROS: ***Hist. de** España* II. p. 323.

(٤) لفظ « نزع » هنا مستعمل استعمالا خاصاً ، لأن « النازع » فى الاصطلاح الأندلسى هو الجندى الذى يندس فى جيش الأعداء أو يدخل معهم حصنهم متنكراً فى زيهم حتى يتعرف أخبارهم أو يثبط هممهم ، ثم ينزح إلى قومه ساعة الحاجة إليه أو بعد سقوط الحصن ، وكان فى الأنظمة الحربية الأندلسية ديوان خاص لهؤلاء يعرف «بديوان النزاع » .

قد بدأ . والدياجير ممدودة السرادق ، مجموعة الفيالق ، ولا جار إلا الفاسق [1] ولا مار إلا السما والطارق ، وكنت قد استدنيت القائدين المجربين ذوى النصيحة والآراء الصحيحة « أبا عبد الله محمد بن عائشة » وأبا محمد عبد الله ابن فاطمة[2] وليّى أعزهما الله . فجالا فى مضمار وساع واضطلاع ، بذرع وذراع ، فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين . وخضعنا إلى حكمه مستسلمين . فعند ذلك حل يده المحتبى ، وقيل ياخيل الله اركبى ، فعادت الآراء بالرايات . وحكمت النهى فى النهايات (١٥٧) والأسنة تجول [3] فى آمادها ، والنصول تصول فى أغمادها . وثرنا كما ثار الشهم بفرصته ، وطار السهم لغرضته [4] ، وأمرت رجالا بلزوم المحلة فسدوا فرج أبوابها ، ولاذوا بأوتادها وأسبابها ، فداروا بها دور السوار ، وانتظموها انتظام الأسوار ، قد شرعوا الأسنة من أطرافها ، وأجالوا البواتر فى أكنافها وأضاقوا الأفنية ، وقاربوا بين الأخبية . وعبأنا الجيش يمناه ويسراه ، وصدره ولهاه ، وساقته وأولاه .

ونهضنا بجملتنا من محلتنا ، والصبر يفرغ علينا لأمه ، والنصر يبلغ إلينا سلامه ، وتوجهنا إلى الله نتقى سبيله ، ونبتغى دليله ، فما رفع الفجر من حجابه ، ولا كشر الصبح عن نابه ، حتى ارتفعت ألوية الدين سامية الأعلام ، واتسعت أقضية المسلمين ماضية الأحكام ، وقبض الليل مُخمّسه ، وفضح الصبح نفسه ، ولسن السنان لمعان ، ولشباب العراك ريعان ، ولاخفاق الأعلام ضراب أو طعان .

---

(١) أى العدو .

(٢) لم نعلم إلا من هذه الوثيقة أن هذين القائدين المرابطين الكبيرين حضرا هذه المعركة .

(٣) فى الأصل : وإلا يحول .

(٤) فى الأصل من غير نقط ، وقد جاء فى لسان العرب : « وفرضة النهر ثلمته التى منها يستقى ، وفى حديث موسى عليه السلام : « حتى أرفأ به عند فرضة النهر أى مشرعته ، وجمع الفرضة فُرَض ، وفى حديث ابن الزبير : واجعلوا السيوف المنايا فرضا أى اجعلوها مشارع للمنايا وتعرضوا للشهادة » (ج ٩ ص ٧١) ولهذا قرأتها : فرضة .

وعند ذلك نجم « العجم » فى سواد الليل وإزباد السيل ، يهطعون إلى داعيهم ، ويهرعون إلى ناعيهم ، فى دروع كالبوارى ، ورماح كالصوارى كأنما شجروا باللديد ، وسجنوا فى الحديد ، يزحفون والحين يعجلهم ، ويركبون [والموت] يؤجلهم ، يتلمظون تلمظ الحيات (٥٧ ب) قد تحالفوا أن لا يتخالفوا ، وتبايعوا أن يتشايعوا ، ووصلوا إلى مقدمتنا ، وكان هناك القائد « أبو عبد الله محمد بن أبى زَنْبى »[1] مع جماعة ، فصدمهم العدو بصدور نمرة وقلوب أشرة ، فأنحوا بكلاكل أورموا بجندل ، وشدوا فاردوا ، وصادروا فما صدوا ، وتقهقر القائد « أبو عبد الله » غير مُوَلٍّ وتراجع غير مخل إلى أن اشتد منا بطود ، وزحم من جيشنا بعَوْد .

فتراءى الجمعان ، وتدانى العسكران ، وأمسكنا ولا جُبْن ، ووقفنا والأناة يمن ، فعند ذلك ثار النصر فمدّ بناه ، وأتى الصبر فأشرق محياه ، ونزلت السكينة ، وأخلصت القلوب المستكنة ، واهتزت الفيالق مائجة ، وهدرت الشقاشق هائجة ، وبححظت العيون غضباً ، وطلبت البواتر سبباً ، وأذن الحديد بالجلاد ، وبرزت السيوف عن الأغماد ، وتساهلت الخيول وتطاولت القبول ، فعند ذلك تواقف القوم كوقفة القبر ، بين الورد والصدر ، فبرز فارس من العرب[2] . فطعن فارساً منهم فأدراه من مركبه ، ورماه بين يدى موكبه ، فانتهج ، ما ارتج ، وانفتح المبهم وأفصح المعجم ، فعند ذلك اختلطت الخيل ، بل سال السيل ، وأظلم الليل ، واعتنقت الفرسان ، واندقت الخرصان[3] ودجاليل القتام ، وضاق مجال الجيش اللهام ، واختلط الحسام بالأجسام ، والأرماح (٥٨ ا) بالأشباح ، ودارت رحى الحرب تفغر بنكالها ، وثارت ثائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها ، فلثغر الصدور ابتراد ، ولجزم القلوب

---

(١) هذه هي المرة الأولى التى يرد فيها ذكر هذا القائد المرابطى .

(٢) للمرة الأولى يرد ذكر « العرب » فى القتال فى الأندلس فى ذلك العصر ، والغالب أن نقرأ من العرب الهلاليين ، الذين كانوا فى المغرب إذ ذاك ، عبر مع المرابطين إلى الأندلس للاشتراك فى الحروب مع النصارى ، وسيشترك هؤلاء العرب فى تلك الحروب بشكل ظاهر أيام الموحدين .

(٣) جاء فى اللسان (ج ٨ ص ٢٨٧) خرصان : جمع خرص سنان الرمح ، أو هو الرمح نفسه

انهياد ؟ فلا وضح النهار ، ولا مسخ الغبار ، حتى خضعت منهم الرقاب ، وقبلت رؤوسهم التراب ، واتصل الهلاك بالشرك ، ومادت الضالة إلى الهلاك ، وقُلم ظفر الكفر ، وطالت أيمان الإيمان ، وفر الصليب سليباً ، وعجم عود الإسلام فكان طيباً [1] ، وغمرهم الحتف فهمدوا ، وأطفأهم الحين فخمدوا ، ومات جلهم بل كلهم ، وما نجا إلا أقلهم ؛ وحانوا فبانوا ، وقيل كانوا ، وكشفت الحبوات . وانجلت تلك الجنات ، عن رسوم جسوم قد قصفتها البواتر ، ووطئتها الحوافر ، خاضعة الخدود عاثرة الجدود ، وأخذت ساقتنا في الطلب وضم السلب إلى السلب . وملئت الأيدي بنيل وافى الكيل ، خيلا وبغالا وسلاحاً ومالا ، ودروعاً أكلهم حملها ، وأثقلهم جملها ، فساءت ملبساً وصارت مخسبساً ، فطرحوها كأنهم منحوها ، وألقوها كأنهم أعطوها . احتزناها نهباً ، وأخذناها كأن لم تكن غصباً ، لقطة ولا نكر ، وعطية ولغيرهم شكر ، ثم أمرت بجمع الرؤوس ، فاحتيزت الدانية وزُهد في جمع النائية ، فكان مبلغها نيفاً على ثلاثة آلاف منهم غرسية أوردونش [2] والقومط (٥٨ب) وقواد بلاد طليطلة ، وأكابر منهم لم يكمل الآن البحث عنهم [3] ، فكانت كالهضب الجسيم ، بل الطود العظيم ، وأذن عليها المؤذنون ، يوحدون الله ويكبرون ، فلما جاء نصر الله ، ووهب لنا فتح الله ، شكرنا مولى النعم ومسديها ، ومعيد المنن ومهديها ، وصدرتُ غانماً وأُبت سالماً ، وبقي القائدان محاصرين لحصن أقليش آخذين بمخنقهم ، مستولين على رمقهم .

---

(١) كذا في الأصل ، ولعلها « صليباً » .

(٢) هو الكونت Garcia Ardoñez قائد قشتالي آخر من كبار من قتلوا في هذه المعركة ، وكان من فرسان « سانشو الثاني » ملك ليون ثم أصبح من أتباع ألفونس السادس صاحب ليون وقشتالة ، وحارب مع السيد حيناً وضده حيناً ، واشترك في معارك كثيرة ضد المرابطين ، فكان من المدافعين عن حصن ليبط Aledo ، وانهزم أمامهم في موقعة « الكراز » Alcoraz ، واشترك في الهجوم على سرقسطة بعد ذلك ، ثم لقي حتفه في موقعة « أقليش » هذه .

: Menendez Pidal : *La España del Cid*, index

(٣) هذه العبارة تدل على أن هذا الكتاب كتب في عقد الموقعة مباشرة .

فخاطبت أمير المسلمين أدام الله سروره ووصل حبوره ، معلما بالأمر ، مهنيا بالنصر ، لنحمد الله عز وجل على ما وهب، ونشكره على ما سنى وسبب والله يتكفل بالمزيد ويشفع القديم بالجديد ، ويمن بالظفر والتأييد ، فهو ولى الامتنان والملى بالفضل والإحسان ، لارب غيره ولا معبود سواه .

الوثيقة الثانية :

واضح من عنوان هذه الرسالة أنها كتبت بعد سقوط سرقسطة فى يد ألفونس المقاتل بسنوات ؛ وعند مقارنتها بالوثيقتين التاليتين يتضح أنهما نتيجة لهـا ، ولمـا كان تاريخهما هو سنة ٥٢٣ هـ/١١٢٩ م . فإننا نستطيع أن نقرر أنها كتبت فى ذلك العام نفسه . ولاشك فى أن أهل سرقسطه كتبوا استغاثات كثيرة مثل هذه ، ولكن شيئاً منها لم يصل إلينا ، ومن هنا كانت قيمتها التاريخية ، إذ أنها صوت الجماعة الاسلامية فى سرقسطة بعد أن صارت فى أيدى النصارى بسنوات . وعلى الرغم من إسراف كاتب الرسالة فى المحسنات البديعية وتضييعه علينا بذلك أهم ما كنا ننتظره منه ، وهو وصف حال البلد فى ذلك الحين وصفاً واقعياً ماديا ، كما فعل محمد بن علقمة عندما وصف لنا حال أهل بلنسيه فى يد السيد القمبيطور فى كتابه « البيان الواضح عن الملم الفادح » بالرغم من ذلك لم تخل الرسالة من إشارات على أعظم جانب من الأهمية ، وهى علاوة على ذلك تصور لنا حالة اليأس الشامل الذى وقع فيه أهل هذا البلد بعد أن انقطعت الصلة تمـاما بينهم وبين إخوانهم المسلمين فى كل ناحية ، ولهذا كله فهى جديرة بالدراسة ، وقيمتها التاريخية عظيمة ، أما قيمتها كنص أدبى فلا تحتاج إلى بيان .

وقد حاولتُ أن أتعرف على شخصية ثابت بن عبد الله كاتب هذه الرسالة ، فلم أجد له ذكراً فى مراجعنا الأندلسية ، وهذا هو المنتظر ، لأنه كان من هذه الجماعة الاسلامية السرقسطية التى قدرلهـا أن تنفصل عن العالم الاسلامى انفصالا تاما ، وتختفى فى العالم النصرانى شيئاً فشيئا .

رسالة *

كتب بها قاضي سرقسطة والجمهور فيها إلى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين [1] حين حاصرها ابن رذ رمير[2] واستغلها [3] أعادها الله

من ملازمي طاعة سلطانه ومستنجديه على أعداء الله ثابت بن عبد الله [4] وجماعة سرقسطة من (الجمهور)[5] فيها من عباد الله .

أطال الله بقاء الأمير الأجل ، الرفيع القدر والمحل (   ) [6] لحرم الاسلام يمنعه (١٥٩) (   ) [7] من كرب عظيم على المسلمين يزيحه عنهم ويدفعه .

(كتبنا) إليه أيدك الله بتقواه ، ووفقك لاشتراء دار حسناه بمجاهدة عداه ، يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك شعبان [8] ، عن حال قد عظم بلاؤها ، وأدلهمت ضراؤها ، فنحن في كرب عظيم وجهد أليم ، قد جل العزا (ء وعظم) الخطب ، وأظلنا الهلاك والعطب ، فيا غوثاه ! ثم يا غوثاه ! الى الله دعوة (   )تن

---

* صفحة ٨ د ب مخطوط رقم ٤٨٩

(١) عامل الأندلس لعلي بن يوسف بن تاشفين في ذلك الحين .

(٢) ويكتب في بعض النصوص : « ابن ردمير » و « ابن رذمير » وهي صيغة أقرب إلى الصحة ، لأن الصيغة الأصلية لهذا الاسم Rudmir وهو من أسماء الجرمان ، وقد حرفه الاسبان إلى Ramiro ، فالصيغة العربية لهذا أقرب إلى الأصل الجرماني من الصيغة الاسبانية . والمراد بابن « رذمير » هنا الفونسو الأول ملك أرغون وأيون وقشتاله الملقب « بالمقاتل » *El Batallador* .

(٣) أي « واستولى عليها » مما يدل على أن هذا الكتاب كتب بعد سقوط البلد في يد النصارى سنة ٥١٢ هـ .

(٤) ليست لدينا أي معلومات عن هذه الشخصية ، وواضح أنه قاضي البلد ، مما يدل أن على قاضي البلد كان لا يزال معتبراً رئيس جماعتها كما كان الحال في المدن الاندلسية .

(٥) في الأصل : « الجل » .

(٦) هنا كلمة ناقصة في معنى « حماية » .

(٧) بياض في الأصل ، الكلمة الناقصة في معنى : « ودرعا » .

(٨) لم يحدد لنا الكاتب السنة التي كتب فيها ، والغالب أنه صدر بين سنتي ٥٢٠ — ٥٢٣ هـ ، لأن الرد عليه تاريخه سنة ٥٢٣ هـ .

دعاه [1] وأمله لدفع الضرر ورجاه ، سبحانه المرجوّ عند الشدائد ، الجميل الكرم والعوائد ، ويا لله ! ويا للاسلام ! لقد انتهك حماه ، وفضت عراه ! وبلغ المأمولَ من بيضته عداه ، ويا حسرتاه على حضرة قد أشفت على شفى الهلاك ! طالما عمرت بالايمان وازدهت باقامة الصلوات وتلاوة القرآن ، ترجع مراتع للصلبان ومشاهد ذميمة لعبدة الأوثان . ويا ويلاه على مسجد جامعها المكرم ! وقد كان مأنوساً بتلاوة القرآن المعظم ، تطؤه الكفرة الفساق بذميم أقدامها ، ويؤملون أن يدنسوه بقبيح آثامها ، ويعمروه بعبادة أصنامها ، ويتخذوه معاطن لخنازيرها ومواطن لخماراتها ومواخيرها [2]. ثم يا حسرتاه ! على نسوة مكنونات عذارى ، يعدن في أوثاق الأسارى ، وعلى رجال أصبحوا حيارى بل هم سكارى وما هم بسكارى ، ولكن الكرب الذي دهمهم شديد والضر (٥٩ ب) الذي مسهم عظيم جهيد ، من حذرهم على بنيات كن من الستر نجبار الوجوه [3] أن يروا فيهن السوء والمكروه ، وقد كن لا يبدون للنظار ، فالآن حان أن يبرزن إلى الكفار ، وعلى صبية أطفال قد كانوا نشئوا في حجور الايمان : يصيرون في عبيد الأوثان أهل الكفر وأصحاب الشيطان.

فما ظنك أيها الأمير [4] بمن يلوذ به بعد الله الجمهور بأمة هي هي وقايد هذه العظائم الفادحة والنوائب الكالحة ؟ هو المطالب بدمائها إذ أسلمها

---

(١) كذا في الأصل ، والغالب أن صحة اللفظ الناقص : «مؤمن».

(٢) هذا يدل على أن مسجد سرقسطة الجامع كان قد تم تحويله إلى كنيسة قبل تاريخ الخطاب ، أي قبل سنة ٥٢٣ هـ . مما يدل على أن الفونسو المقاتل لم يكد يدخل البلد حتى خالف الشروط التي كان قد عاهد المسلمين عليها .

(٣) كذا في الأصل ، ولعل صحتها : « نجيبات » أو « مخدرات » .

(٤) هنا يبدأ الجزء الثاني من الخطاب : جزء مهاجمة المرابطين ولومهم وتحميلهم مسئولية كل ما يصيب الاسلام في الأندلس من المصائب . وقد كانت الأندلسيين على المرابطين جرأة بلغت حد الاهانة في كثير من الأحيان . وواضح أن الاندلسيين لم يكونوا يحترمون المرابطين ، بل كانوا يكرهونهم ، ولم يكونوا يتوجهون اليهم في طلب العون إلا تحت ضغط الحاجة .

فى آخر ذمائها، و تركها أغراضاً لأعدائها، حين أحجم عن لقائها [1]،
فإلى الله بك المشتكى ثم إلى رسوله المصطفى ثم إلى ولى عهده أمير المسلمين المرتضى،
حين ابتعثك بأجناده وأمدك بالجم الغفير من أعداده نادباً لك إلى مقارعة العدو
المحاصر لها وجهاده، والذب عن أوليائه المعتصمين بحبل طاعته والمتجملين
السبعة الأشهر الشدائد الهائلة فى جنب موالاته ومشايعته، من أمة قد نهكهم
ألم الجوع وبلغ المدى بهم من الضراء حيح، قد برح بهم الحصار، وقعدت عن نصرتهم
لأنصار، فترى الأطفال بل الرجال جوعاً يجرون، يلوذون رحمة الله ويستغيثون،
ويتمنون مقدمك بل يتضرعون، حتى كأنك قلت اخسأوا فيها ولا تكلمون!
وما كان إلا أن وصلتَ وصل الله ركك بتقواه على مقربة من هذه الحضرة،
ونحن (١٦٠) نأمل منك بحول الله أسباب النصرة بتلك العساكر التى أقر الله
بهاؤها وسر النفوس زهاؤها ، فسرعان ما انثنيت وما انتهيت! وارعويت
وما أدنيت! خايباً عن اللقاء ناكصا على عقبيك عن الاعداء، فما أوليتنا غناءً
بل أوليتنا بلاءً وعلى الداء داء بل أدواء، وتناهت بنا الحال جهداً والتواء
بل أذللت الاسلام والمسلمين واجترحت فصيحة الدنيا والدين!

فيا لله ويا للاسلام! لقد اهتضم حرمه وحماه أشد الاهتضام! إذ أحجمت
أنصاره عن إعزازه أقبح الاحجام، ونكصت عن لقاء عدوه وهو فى فئة
قليلة وأمة رذيلة، وطائفة قليلة يستنصر بالصلبان والأصنام، وأنتم تستنصرون
بشعائر الاسلام، وكلمة الله هى العليا ويده الطولى، وكلمة الذين كفروا
السفلى، وإن من وهن الايمان وأشد الضعف الفرار عن الضعف، فكيف
عن أقل من النصف [2]؟ فما [3] قبيح من رضى بالصغار وسيم [4] خطة

---

(١) هنا يدعى أهل سرقسطة على المرابطين تهمة لا أساس لها : تهمة الاحجام عن لقاء النصارى ، وقد أثبتنا فى المقال أن المرابطين بذلوا فى سبيل الاسلام الأندلسى ما لم يبذله غيرهم ، وقد كانت الحرب بينهم وبين الموحدين إذ ذاك على أشدها ، وقعودهم عن عون سرقسطة إنما كان سببه سوء ظن فيهم ، لا الاحجام عن لقاء النصارى . وسنرى من بقية الخطاب ، أنهم حاولوا انقاذ البلد رغم ذلك .

(٢) ربما أعانتنا هذه الاشارة على تحديد تاريخ هذا الخطاب .

(٣) كذا فى الأصل ، والغالب أن صحتها : « فيا » .

(٤) فى الأصل « وسيما » وهى غلطة وقع فيها الناسخ نتيجة الاملاء ، وهى تؤيد ما أشرنا إليه من ضغط الأندلسيين على أواخر الكلمات .

الخسف ، فما هذا الجبن والفزع ؟ وما هذا الهلع والجزع ؟ بل ما هذا العار والضيع ؟ أتحسبون [1] يامعشر المرابطين ، وإخواننا فى ذات الله المؤمنين ، إنْ سبق على سرقسطة القدَر بما يتوقع منه المكروه والحذر ، أنكم تبلعون بعدها ريقاً ، وتجدون فى ساير بلاد الأندلس — عصمها الله — مسلكا من النجاة أو طريقاً ؟ كلا ! والله ليسومنكم الكفار عنها جلاء وفراراً (٦٠ ب) ! وليخرجنكم منها داراً فداراً ! فسرقسطة حرسها الله هى السد الذى إن فُتق فتقت بعده أسداد ، والبلد الذى إن استبيح لأعداء الله استبيحت له أقطار وبلاد !

فالآن [2] أيها الأمير الأجل ! هذه أبواب الجنة قد فتحت ، وأعلام الفتح قد طلعت ، فالمنية ولا الدنيه ! والنار ولا العار ! فأين النفوس الأبية ؟ وأين الأنفة والحمية ؟ وأين الهمم المرابطية [3] ، فلتقدح عن زنادها بانتضاء حدها، وامتطاء جدها واجتهادها ، وملاقاة أعداء الله وجهادها ، فان حزب الله هم الغالبون ، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد فى سبيله أن ينصره ، ولمن حامى عن دينه أن يؤيده ويظهره ، فما هذا أيها الأمير الأجل ؟ ألا ترغب فى رضوانه واشتراء جناته بمقارعة حزب شيطانه ، والدفاع عن أهل إيمانه ؟ فاستعن بالله على عدوه وحربه ، واعمد ببصيرة فى ذات الله إلى إخوان الشيطان وحزبه ، فانهم أغراضٌ للمنايا والحتوف ، ونهز للرماح والسيوف ، ولا ترض بخطة العار ، وسوء الذكر والصيت فى جميع الأمصار ، ولا تكن كمن قيل فيه :

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ولا يرزا من العدو فتيلا

ولن يسعك عند الله ولا عند مؤمن عذر فى التأخر والارعواء ، عن مناجزة الكفار والأعداء ، وكتابنا هذا أيها الأمير اعتذار تقوم لنا به الحجة

---

(١) هنا يلجأ أهل سرقسطة إلى تهديد المرابطين وتخويفهم ، وهى خطوة بعد اللوم والتأنيب .

(٢) هنا يعود السرقسطيون إلى الرجاء والاستعطاف . وواضح أن كاتب الخطاب كان رجلا ماهراً لبقاً ، يعرف كيف يجمع فى كتابه كل ما عساه أن يستنهض الهمم ويثير النفوس .

(٣) لاحظ هذه العبارة وما بعدها .

فى جميع البلاد ، وعند سائر العباد ، فى إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر و الالحاد . ونحن مؤمنون بل موقنون من إجابتكم إلى نصرتنا ، وإنقاذك إلى الدفاع عن حضرتنا ، وأنك لاتتأخر عن تلبية ندائنا ودعائنا ، إلى استنقاذنا من أيدى أعدائنا ، فدفاعك إنما هو فى ذات الله وعن كلمة (الدين وربه) [1] ، وحاماتك عن الاسلام وحزبه ، فذلك الفخر الأنبل لك فى الأخرى والدنيا ، ومورث لك عند الله المنزلة العليا . فكم تحيي من أمم ، وتجلى من كروب وغمم !

وإن تكن منك الأخرى ، وهى الأبعد عن متانة دينك وصحة يقينك ، فأقبل بعسكرك على مقربة من سرقسطة — عصمها الله — ليخرج الجميع عنها ، ويبرأ إلى العدو وقه الله منها [2] . ولا تتأخر — كيفما كان — طرفة عين ، فالأمر أضيق ، والحال أزهق ، فعَدّ بنا [3] عن المطل والتسويف ، قبل وقوع المكروه والمخوف ، وإلا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا و أموالنا ، والمسئولون عن صبيتنا وأطفالنا ، لاحتجامكم عن أعدائنا [4] وتثبطكم عن إجابة ندائنا ، وهذه حال نعيذك أيها الأمير الأجل عنها ، فإنها تحمّلك من العار مالم تحمله أحداً ، وتورثك وجميعَ المرابطين الخزى أبداً ، فالله الله ! اتقوه وأيدوا دينه (٦١ ب) وانصروه ، فقد تعين عليكم جهاد الكفار ، والذب عن الحريم والديار . قال الله : « ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ... » الآية ، وقد برئتم بإسلامنا للاعداء من نصر الاسلام ، وعند الله لنا لطف خفى ، ومن رحمته ينزل (الصنع) الحفى ، ويغنينا الله عنكم ، وهو الحميد الغنى !

---

(١) أضفت هذه العبارة ليستقيم السياق .

(٢) هذه إشارة مهمة ، فقد كان الخروج من المدينة يباح لمن أراده من المسلمين ، من هؤلاء كانوا يخشون أن يتخطفهم اللصوص ويجد النصارى فى الطريق ، وقد حدث ذلك كثيراً وهم لهذا يرجون أن يقترب من البلد جيش مرابطى ليخرجوا من البلد ويسيروا إلى بلاد الاسلام فى حماه .

(٣) فى الأصل : فعدينا .

(٤) فى الأصل : إعدادتنا .

ومن متحملي كتابنا هذا ، وهم ثقاتنا ، تقف من كنه حالنا على ما لم يتضمنه الخطاب ولا استوعبه الاطناب بمثله (١) وله أتم الطول فى الاصغاء إليهم ، واقتضاء ما لديهم إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (٢).

الوثيقة الثالثة :

من الواضح أن هذا الخطاب إنما أمر على بن يوسف بكتابته بعد أن وصله خطاب أهل سرقسطة السابق ، وبعد أن كتب إليه القائد أبو محمد بن أبى بكر ابن سير يصف له لقاءه مع النصارى عند « القلعة » ويعتذر عن هزيمته أمامهم على النحو الذى بينته فى مقدمة الوثيقة السابقة .

والكتاب من إنشاء الكاتب الأندلسى المعروف مروان بن أبى الخصال أعظم الناثرين الأندلسيين فى ذلك الحين ، وواحد ممن انتهت اليهم زعامة النثر الفنى فى تاريخ الأدب الأندلسى كله ، وقد وصفه المقرى فى « نفح الطيب » بقوله : « رئيس كتاب الأندلس » وذكر أن له مؤلفاً يسمى « كتاب مزاج الأدب » ، صنفه على منزع كتاب « النوادر » لأبى على (القالى) وزهر الآداب للحصرى (القيروانى) (انظر ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ١٢٤) ووصفه مرتين « بالوزير » مما يدل على أنه كان على الأقل من كبار رجال بلاطات الأندلس فى عهدى « أمراء الطوائف » والمرابطين ، وذكره « ابن حزم » فى « رسالته » مفاخراً المشارقة بترسيله (المقرى ج ٢ ص ١٣٠) .

وربما استطعنا أن نستنتج من هذه الوثيقة نتيجة هامة لم تشر إليها المراجع ، وهى أن ابن أبى الخصال كان فى ديوان الانشاء المرابطى ، وكان يقيم فى مراكش فى بلاط « على بن يوسف » ولم يشر واحد ممن ترجموا للرجل إلى ذلك .

---

(١) هنا كلمة لم أستطع قراءتها ، ورسمها هكذا : عنه . والغالب أن الناسخ أسقط هنا عبارة فى معنى : ورجاؤنا أن يتفضل الأمير علينا عنه .

(٢) هنا يقف الخطاب ، وكان يودنا لو عرفنا من حملة « متحملو » الخطاب وصف أحوال أهل سرقسطة فى ذلك الحين بشىء من التفصيل .

وصدور الكتاب عن « أمير المسلمين » نفسه يدل على أنه كان مشرفا إشرافا مباشراً على أمور الأندلس فى ذلك الحين ، وأن الكتب التى كانت تصل إلى أخيه أبى الطاهر تميم عامل الاندلس كانت تحوّل إلى رئيس الدولة المرابطية لينظر فيها بنفسه .

ونص الكتاب يدل على اهتمام « على بن يوسف » بشئون الأندلس رغم الظروف العصيبة التى كانت تحيط به وبدولته فى ذلك الحين . وتلك حقيقة هامة تؤيد ما قلناه في هذا الامير المرابطى العظيم ، وتدحض ما ذهب إليه دوزى وسيمونيت وكوديرا ومننديذ بيدال فى حقه ، وتؤيد كذلك ما قررناه من أن المرابطين ، كالاتراك العثمانيين ، كانوا يعتقدون أن مهمتهم الأولى هى الدفاع عن حرمة الاسلام .

أما هزيمة المرابطين وقائدهم فى هذه الجبهة الشرقية محمد بن أبى بكر بن سير عند « القلمة » أو « التلاعة » — وهى لغة أندلسية فى نطق هذا اللفظ — فحقيقة جديدة لم نعرفها إلا عن طريق هذه الوثيقة والتى تليها ، ولا بد أنها كانت إحدى المواقع الكثيرة التى وقعت بين « المرابطين » والنصارى فى طول الاندلس بعد استيلاء الفونس المقاتل على سرقسطة ، إذ أن المرابطين لم يكفوا عن محاولة استعادة سرقسطة ، وكانوا لا يتوقفون عاما واحداً عن إرسال البعوث إلى ناحيتها ، وليس لدينا مع الأسف الشديد أى تفاصيل دقيقة عن هذه الاشتباكات ، لأن شبه الجزيرة كله تحول الى ميدان حرب رهيب يقتتل المرابطين مع النصارى فى كل ناحية من نواحيه ، وكانت أعداد المرابطين كبيرة نوعا ما ولكن حالتهم المعنوية كانت قد ساءت بسبب اضطراب أمور دولتهم فى افريقية وإقلاب الاندلسيين المسلمين عليهم ، فكانوا يرتدون عن اللقاء في كثير من الأحيان . وهذه الوثيقة تعين لنا تاريخ إحدى المحاولات لانقاذ الأندلس ، وتحدد لنا تاريخها وتصفها لنا وصفاً لا بأس به . ولم يستعد المرابطون ثباتهم فى الأندلس إلا فى سنة ٥٢٤ هـ حينما عبر على بن يوسف بنفسه عبوره الرابع الأخير لكى يتلافى أمر ممتلكاته الأندلسية بعد أن أشرفت على الضياع .

رسالة*

كتب بها أمير المسلمين إلى الأمير الأجل

أبي محمد ابن أبي بكر بهزيمة « القلمة » رحمهما الله [1]

كتابنا وفق الله رأيك وحسن هديك ، ولا أمال عن الهدى والرشد سعيك ، من حضرة مراكش حرسها الله في السابع من شعبان المكرم سنة ثلاث وعشرين وخمس مائة . وقبله وافى [2] كتابك تذكر فيه الميلة التي كانت للعدو ـ دمره الله ـ عليك في اليوم الذي واجهتموه فيه [3] ، بعد أن كان لكم صدره وأتيح لكم نصره ، فأواخر (الأمور) [4] أبداً أوكد وأهم ، والعواقب هي التي تحمد أو تذم ، وإذا حسنت خواتم الأعمال فالصنع أبهى وأتم ، وإن لسان العذر بتلك الحال لقصير ، وإن الله على ذلك المشهد المضيع لمطلع بصير : تواقفتهم مع عدوكم ، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر (١٧٢) جمعاً ، وأحرى أن تكونوا أشد عن حريمكم منعاً ، وأقوى دونه دفعاً ، فثبت وزللتم ، وجد ونكلتم ، وشد عقد عزيمته وحللتم ، وكنتم في تلك الوقعة قرة عين الحاسد وشماتة العدو الراصد ، وقد كانت نصبة [5] توليكم بين يديه بشيعة [6] هائلة ، ودعامتكم لولا انثناؤه عنكم مائلة ، فشغله عنكم من غررتموه من الرَّجْل [7] الذي أسلمتموه للقتل ، وقررتم ، ونصبتموهم دريئة للرماح ثم طرتم ، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه ، وخذلتموه

---

* صفحة ٧١ ب مخطوط رقم ٤٨٩

(١) ورد في الهامش الأيسر من النص : كتاب الكاتب الأحفل . . . مروان ابن أبي الخصال [رحمـ]ـة الله عليه . صح .

(٢) وفي الأصل : وافا .

(٣) إشارة إلى هزيمة « القلمة » التي ذكرناها .

(٤) وردت كلمة « أواخر » في آخر السطر مبتور أولها ، وقد أضفت كلمة « الأمور » ليستقيم السياق .

(٥) كذا في الأصل ، ولعل صحتها : « قصة » .

(٦) كذا في الأصل .

(٧) هذه الاشارة هامة . إذ من الثابت أن المرابطين تخلوا عن المطوعة وتركوهم يصلون منيران العدو وحدهم في بعض المواقع .

من المجاهدين ولم تنصروه ، لانكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم ، وأصيبت بها ظهوركم وأقفاؤكم ، عاقبكم الله بما أنتم أهله ، فأنتم أشجع الناس أقفاء وظهوراً ، وأجبنهم وجوها ونحوراً ، ليس منكم من تدفع به كريهة ، ولا عندكم في الرشد روية ولا بديهة ، فمتى وأي وقت تفلحون ؟ ولأي شيء بعد ذلك تصلحون [1] ؟ ونحمد الله عز وجهه كثيراً . فقد دفع بفضله الأمر الأكبر ، وأجرى بأكثر السلامة القدر : فاكشفوا بعدُ أغطية أبصاركم ، وقصروا حبل اغتراركم ، والبسوا منه [2] جنة حذاركم ، واعلموا أن وراء مجازاتنا إياكم جزاءً توفونه ويوما عصيباً تلقونه ، فكونوا بعد هذه الهناة لداعي الرشد بين مطيع وسامع ، ومن كلمة الاتفاق والتآلف (ب ٧٢) على أمر جامع [3] ، فانكم لو [خلصت غيوبكم] [4] حسنت سريرتكم ، واطمأنت على التقوى قلوبكم ، لظهر أمركم وعلا حدكم ، ولما ذهب ريحكم ولا أخل [5] جدكم ، فتوخوا في سبيل الله وطاعته أخلص النيات وأصدق العزمات ، واثبتوا أحسن الثبات ، وكونوا من الحذر والتقوى على مثل ليلة البيات .

وقد ذُكر أن للعدو دمره الله مدد يأتيه من خلفه ، والله يقطع به ، فلتضعوا على مسالكه عيونا تكلأ ، ولتكن آذانكم مصيخة لما يطرأ ، فان كان له مدد كما ذكر قطعتم به السبيل دون لحاقه ، وأقمتم الحزم على ساقه ، والله تعالى يفتح لكم فيهم الأبواب ، ويأخذ بأزمتكم إلى الصواب ، إنه الحميد المجيد ، لا إله غيره .

---

(١) هذه العبارة تذكرنا .

(٢) فى الهامش : منا ، صح .

(٣) هذه الاشارة تدل على أنه حدث فى جيش المسلمين شقاق قبل هذه الواقعة أو اثناءها ، والغالب أن يكون هذا الشقاق قد وقع بين الأندلسيين والمرابطين ، وهذه ظاهرة ستتكرر كثيراً فى تاريخ الجهاد فى الاندلس ، وقد ظهرت بشكل واضح فى عجز المسلمين عن الاستيلاء على حصن « لييط » وستظهر فى أسوأ صورها فى هزيمة المسلمين الكبرى يوم « العقاب » فى عصر الموحدين .

(٤) بياض فى الأصل ، وقد أضفت هذه العبارة ليستقيم السياق .

(٥) فى الأصل : ولاخل .

الوثيقة الرابعة :

صدر هذا الخطاب عن على بن يوسف بعد كتابه السابق بأربعة أيام فحسب ، وهو يتعلق بهزيمة « الفلعة » التى دارت عليها الوثيقة السابقة ، ومن أسف أن الخطاب الذى تشير إليه ، وهو الذى يصف فيه أبو الطاهر تميم ما جرى فى يوم « الفلعة » قد ضاع ، ولكننا نستطيع أن نستنتج أن القائد المرابطى أقر بالهزيمة وحاول تبريرها فى خطابه إلى أميره ، ولكن علىّ بن يوسف لم يأخذ بمعاذيره و كتب إليه يلومه فى أسلوب عنيف قاس ويفهم من نص الخطاب أيضاً أن صدر اليوم كان للمرابطين ، وأن الهزيمة دارت عليها فى نصفه الثانى ، وهذه ظاهرة كثيرة التوارد فى مواقع المرابطين ، وتعليلها بسيط : وهو أن المرابطين كانوا يهجمون بحماس شديد فيزيلون العدو عن مواقعه لأول وهلة ، ولما كانوا يحاربون من غير دروع ثقيلة فى حين أن خصومهم كانوا لا يدخلون المعركة إلا مدرعين تدريعاً كاملا فقد كان من الطبيعى أن تكون نسبة قتلاهم خلال الساعات الأولى عالية جداً ، ومن ثم كانت صفوفهم تتخلخل ولا يستطيعون الثبات فى نصف المعركة الثاني .

وهذه الرسالة على صغرها عظيمة الدلالة ، نستطيع أن نستنتج منها نتائج هامة فيما يتصل بموقف على بن يوسف من الأندلس واهتمامه بمصيره فى ذلك العام . والوقائع التاريخية كلها تؤيد ذلك ، وفيما يتصل كذلك بأسلوب التخاطب الذي كان يجرى عليه ديوان الأنشاء المرابطى في مخاطبة القواد .

وكاتب الخطاب هو أبو الخصال ، ونلاحظ أنه بالغ فى إهانة المرابطيين على عهد الأندلسيين فى الكتابة عنهم ، وعند عبد الواحد المراكشى خطابات تشبه هذا من ناحية الروح والأسلوب ، بل يلغ من قوة أسلوب الخطاب ذات مرة أن غضب على بن يوسف على الكاتب . وربما فهمنا من ذلك أن « علياً » لم يكن يقرأ هذه الكتب قبل إرسالها . وطبيعى كذلك أنه لم يكن ليفهم هذا الكلف اللغوى الذى كان كتاب الأندلس فى ذلك العصر يسرفون فيه .

رسالة *

وله إلى المذكورين (١) مجاوبا لهم بهزيمة ابن رذمير إياهم فى « القلاعة » (٢)

كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه وكنفكم بعصمته وجعلكم فى حماه وأسبغ عليكم عوارفه ونعماه ، من حضرة مراكش حرسها الله فى الحادى عشر من شعبان المكرم من سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، غب ما وافانا كتابكم الأثير، مضمنا وصف اليوم الذى جرت به خزية المقادير، فاستعرضناه وتقرر لدينا جميع ما حواه (٣) ، وفى علمه سبحانه موقع ذلك لدينا وعزازة شأنه علينا ، لكن لا مخرج عن القضاء وحكمه ، ولا محيد عن القدر وحتمه ، ولن يرد حول محتال ماسبق فى علمه ، وما ألونا -- وهو عز وجهه أعدل الشاهدين --- جداً وعزما وكدحا لاعلاء كلمة الاسلام، وحزما ببذل الأموال وتخير الرجال واعتيام الأسلحة والأفراس ، والجمع بين الايحاش والايناس فى الوعد والوعيد والتخصيص والتأكيد ، وعرض الآراء المتخيل فيها السداد وبلوغ مد (   ) سة جهاد فى كل نحو والاجتهاد لو كان العون موجوداً ولم يكن التعذير (   ) صير (٤) حاضراً عتيداً ، والله يجزى كل خاين ماين باسخاطه تعالى داين جزاه ، ويرديه بُرد مضمره ورداه ، ويوشك مقارضته وإرداه بحوله وطوله ؛ وبالله القسم الأعظم لو أمكننا أن نكون لديكم حاضرين لأسرعنا بذلك مبادرين (١٧٤) ولما ثنانا عن حمايتكم بنفسنا ثان ، ولا قعد

---

* صفحة ٧٣ ب مخطوط ٤٨٩.

(١) أهل سرقسطة الذين كتبوا اليه (الوثيقة الثانية) .

(٢) كذا فى الأصل ، وهى صيغة فى « القلمة » . و« القلمة » على مقربة من غرناطة .

(٣) فى الأصل : نواه .

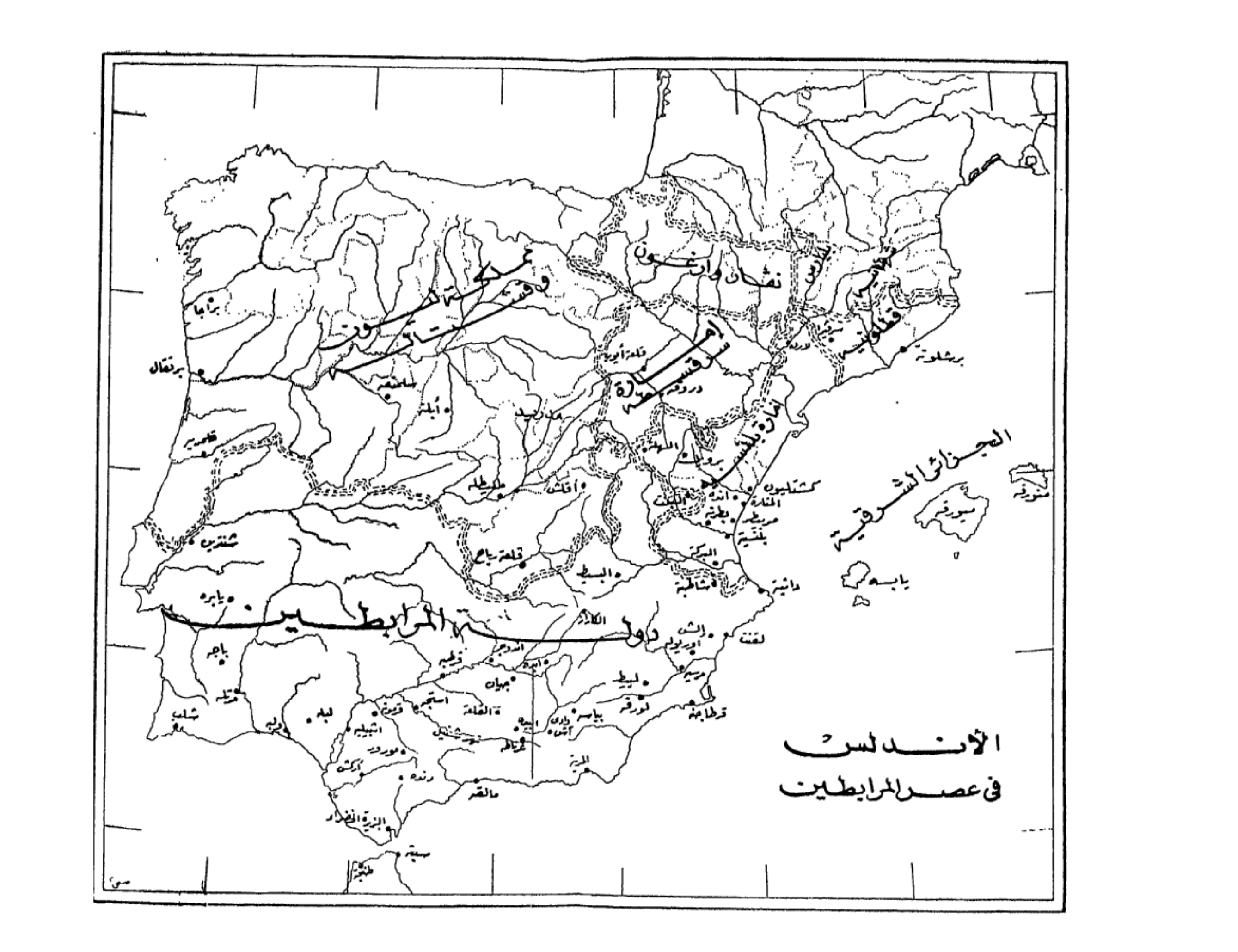
(٤) خرم فى المخطوط .

بنا عن معاجلة نصركم تراخ ولا توان . وقد جددنا الآن أحثّ نظر ونحن
نردفه بما يكون عليكم أتمّ [1] وأرد وأسرع منتظر ، فلتهدأ ضلوعكم
ويسكن مروعكم، فما لنا والله يشهد هم سوى الذياد عنكم والدفاع ، والانفراد،
لذلك والاستجاع ، والاجتهاد ، والتوفر عليه بأتم الاضطلاع ،
والله عز وجل المعين المنجد ، فلم يزل يعضد على ما يرضيه ويؤيد ، لا إله إلا هو .

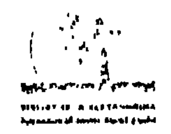
---

(1) فى الأصل : ألم

رقم الإيداع	٧٠٦٤ / ٩٢
الترقيم الدولى	977 - 5365 - 02 - 3



الأندلس
في عصر المرابطين
دولة المرابطين
مملكة ليون وقشتالة
نصارى أراغون
إمارة سرقسطة
إمارة بلنسية
الجزائر الشرقية
قطلونية
برتقال
سلمنقة
مدريد
طليطلة
أقليش
قلمرية
شنترين
يابرة
باجة
مرتلة
شلب
ولبة
لبلة
قلعة رباح
البسيط
قلعة أيوب
دروقة
بروال
كشتليون
بلنسية
دانية
شاطبة
لقنت
أوريولة
مرسية
لورقة
قرطاجنة
قرطبة
جيان
أستجة
إشبيلية
مورور
أركش
رندة
مالقة
غرناطة
المرية
وادي آش
بياسة
الجزيرة الخضراء
سبتة
طنجة
برشلونة
ميورقة
منورقة
يابسة



مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسي : ٥٢٦ شارع بور سعيد الظاهر
تليفون ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠